BENHEBRI
SABRINA

أسميتك حلم

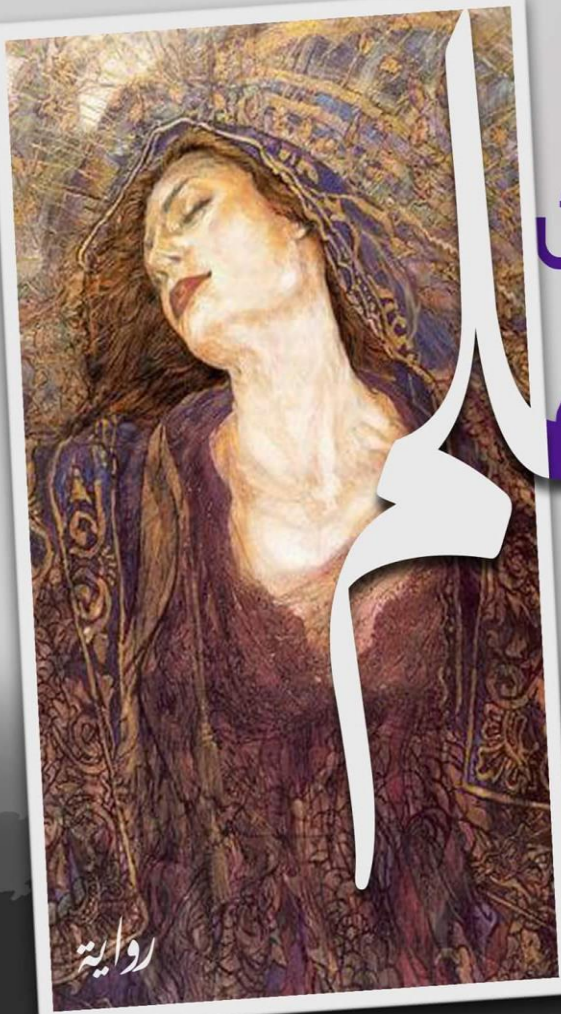

بن هبري صبرينة

أسميتكِ "حلم"

بن هبري صبرينة

اسم العمل: أسينث حلم

اسم المؤلفة: بن هبري صبرينة

الترقيم الدولي (ISBN)

978-9931-689-13-3

الناشر / المثقف للنشر والتوزيع - الجزائر

الطبعة الثانية 1439 هـ - 2018 م

جميع حقوق النشر الورقي و
الإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة

إ هـد ا ء :

إلى أُمي التي زرعت فيَّ روح التحليق وأبي الذي سمح لي بذلك.

إلى أميرتي و توأم روحي وصديقتي الأبدية "أميرة".

إلى عائلتي التي دعمتني دوما وإلى إخوتي.

إلى كل أصدقائي وصديقاتي..

إلى أرواح شهداء غزة، الى الأمهات الثكالى، إلى الأرامل والأيتام ..

إلى الأمهات اللواتي فقدن أولادهن في قوارب الموت، إلى أرواح من ماتوا في البحر وإلى كل من رحل وترك هذا الوطن..

إلى كل من سيجد نفسه بين أسطر وكلمات هذه الرواية.

إلى كل من تُرك في منتصف الطريق.. أهديكم ما كتبته ..

لكل من كان سببا في رحيل وحزن هؤلاء.. وللمجتمع الصامت على الاغتصاب والقتل والاختطاف.. لا إهداء لكم هنا.

"بداية "

غزة

جويلية 2014

بينما هي جالسة في البيت وسط الكتب وأوراقها المبعثرة وبينما هي تشرب فنجانا آخرا من القهوة، مازالت تفكر، شربت الكثير من القهوة منذ دخولها إلى البيت، فنجان بعد آخر، كانت مرهقة منذ عدة أيام، أنهكها الأرق، تفكر كثيرا، تائهة، حزينة في وطن غريب عنها .

لم ترتب فوضى البيت منذ عدة أيام ، رغم أنها ليست معتادة عليها فهي معروفة عند الجميع أنها منظمة جدا، فقدت الشعور بالحياة وغرقت في أفكارها مطولا، تسرح، تتأمل كل شيء: الكتب المصفوفة في المكتبة، الأريكة التي تجلس عليها، الطاولة ، فناجين القهوة، لون الحائط ، كل شيء هنا يذكرها به، اختارت معه كل تفاصيل البيت، وفي كل زاوية من زوايا هذا البيت الصغير هناك ذكرى له ،غادر سريعا ...

تبدأ في الكتابة :

" حلم

ابنتي ..

لأنّه من عادة أحلامي أن لا تتحقق أسميتكِ (حلم)..

لتكوني أنتِ أجمل أحلامي التي تحققت...

حلم !

كوني حلمي و حقيقتي..

أكتب هذه الرسالة لتقرئيها يوما عندما تكونين شابة بعمر العشرين، عيناك بنيتان كعيني والدك وشعرك مجعد كشعري، بيضاء كالقمر، طاهرة كزهور الياسمين، نقية كتوليب أبيض، أكتب لكِ هذه الرسالة و أتخيل خطواتك الأولى، أتخيل طريقة نطقك لأول كلمة ستقولينها 'ماما"، أول يوم لكِ في المدرسة، عيد ميلادك الثامن عشر، يوم تخرجك، لن أكون معك هناك ولكنني تركت لك هذه الرسائل لتتذكريني..

حلم !

سأكتب الكثير من الرسائل إليكِ لأني لن أكون معك في الكثير من الأوقات لتتأكدي أنّ أمك تحبك جدا .. تحبك أكثر من أي شخص في العالم.. تحبك بلا حدود .. إذا شعرتِ يوما بالوحدة تذكري أنني معك دوما... حتى و إن لم أكن أمامك فإنني في قلبك...سأراقبكِ .. خبئيني في قلبك وتذكريني دوما ..."

كتبت هذه الرسالة والدمع يملأ عينيها، تتذكر جيدا ما قالته الطبيبة في هذا اليوم المشؤوم " أنا أعتذر، و لكن عليَ أن أخبرك بهذا، وجود هذا الجنين في بطنك يشكل خطرا على حياتك، ستكون أيام

الحمل صعبة والولادة كذلك و لا يوجد احتمال أن تعيشا أنتما الاثنان معا، سنكون مضطرين لإسقاط الجنين لننقذ حياتك "

تفكر كثيرا ...

كم كان موته قاسيا، غادر الحياة سريعا، فقدته قبل أن تشبع منه، طيفه لا يغادرها وهي أيضا رحلت معه وفقدت نفسها دون أن تشعر، كل شيء أسود وحزين، لا رائحة للحياة في هذا البيت بعد رحيله، أصبح مليئا بالموت كما هذه المدينة، رائحة الموت في كل مكان، يريدونها مدينة للأشباح والأرواح الراحلة ، كل شيء حزين : أوراق الاشجار، الزهرات، البيوت المدمرة، ترى الحزن في عيون الاطفال، ترى الموت في كل شيء، حتى السماء اليوم أصبحت تمطر دموعا، أصبحت ترى الحياة رمادية، لم تعد عيناها ترى الألوان، أصبحت كتلة حزن تسير على قدمين، ذبل قوس قزح، امتزجت ألوان الطيف هنا لتشكل لوونا وحيدا هو اللون الأسود... كيماوي، فسفور، صواريخ.. تعددت الأسلحة والموت واحد ...

يعيش الناس هنا في انتظار الموت وهي الآن تفعل كذلك مثلهم...

حلم

الجزائر 2034

كما تفعل دوما استيقظت في الصباح الباكر، يوم شتوي من بداية شهر ديسمبر ..

تحب الشتاء كثيرا كما كانت أمها تحبه ، تسمع صوت المطر في الخارج، الجو بارد، ذهبت إلى الحمام لتغتسل، تأملت وجهها في المرآة ، شفتاها اللوزيتان، عيناها الكبيرتان البنيتان كقهوة عربية، أنفها الصغير، و شعرها المجعد، يخبرها الجميع أنها تشبه أمها، أمها التي لا تعرفها أبدا ولم ترها إلّا في الصور، تشعر بشعور غريب، لا تدري إن كان حزنا أو حنينا، تود كثيرا لو كانت أمها وأباها هنا ليرياها، ولكن ذلك مستحيل .. منذ صغرها كانت تتخيلهما في الجنة يشاهدانها، كانت خالتها تخبرها أنّ أمها تحبها كثيرا وأنّها في الجنة تتابعها دائما..

يصادف اليوم عيد ميلادها العشرون، حققت الكثير من الأشياء الجميلة إلى حد الآن بالمقارنة مع من هم في سنها، مقالاتها الصحفية التي تنشرها كل أسبوع في جريدتها الإلكترونية التي أسستها تخليدا لذكرى والدها، تكتب حول المواضيع الشائكة والقضايا الإنسانية والوطنية والتي أصبحت تثير الرأي العام،

امتلكت الكثير من المتابعين في فترة قصيرة، وعدد الأشخاص الذين ينتظرون ما تكتب يزيد كل يوم .

تتأمل نفسها جيدا، ترى كيف أنّها كبرت بسرعة وتتذكر طفولتها كيف كانت فتاة صغيرة وجميلة، هادئة جدا، متفوقة دوما في دراستها، عاشت مع جدتها و خالتها وجدها الذي توفي قبل أربع سنوات، كانوا يعتنون بها كثيرا ويحبونها لأنها الحفيدة الوحيدة أما خالتها رعتها و أشعرتها دوما أنّها أمها ولم تحرمها من أي شيء..

في مثل هذا اليوم من عشرين سنة جاءت إلى هذا العالم، وفي مثل هذا اليوم أيضا غادرت أمها، قبل سنتين فقط من الآن كانت تشعر بتأنيب الضمير وكانت تشعر أنها السبب في رحيلها، ولكن الآن بعد قراءتها لما كتبته أمها، تفكر أن أمها رحلت لأنّه كان يجب أن ترحل، لم تكن تقوَ على الحياة أكثر، منحتها الحياة وغادرت هي بسلام ...

جهزت نفسها و خرجت من غرفتها لتتناول الفطور مع جدتها وخالتها، كانت مبتسمة وبشوشة كعادتها، تنظران إليها بفخر كما تفعلان دوما، نطقت خالتها " واليوم أصبحت ابنتي الجميلة في عمر العشرين " واحتضنتاها بقوة، هنأتاها بعيد ميلادها، ستفعلن اليوم ما تفعلناه في هذا اليوم من كل عام، سيحتفلن بعيد ميلادها.

***

ديهيا

"حلم ..

لا تتوقعي أن تكون الحياة دوما في صفك،عليك أن تعلمي أن الحياة لن تمنحك كل شيء و لن يكون كل شيء دوما كما تتمنين، ولكن عليك أن تكوني دوما قوية في مواجهة الحياة، هذه الدنيا لا ينفع معها من يستسلم، واجهي بكل ما تملكين من قوة ولا تيأسي أبدا.

كل شخص تلتقين به أو تتعاملين معه سيعلمك شيئا، ستجدين أشخاصا يحبونك دون سبب سوى لأنّك أنت، حافظي عليهم وافعلي كل المستطاع لتتمسكي بهم وحاولي دوما أن لا تجرحيهم ولو بنصف كلمة، وفي نفس الوقت ستواجهين أشخاصا لا يحبونك دون سبب رغم أنك لم تؤذهم في شيء ، ابتعدي عن هؤلاء، ولا تتعاملي معهم أبدا، لا تكرهي أحدا.. مهما فعل لك.. الكره يأكل منك الكثير من الصفات الجميلة ويؤذيك أكثر من أي أحد آخر، كوني متفائلة وأحبي الحياة ولكن لا تبالغي في تفاؤلك لأن خيبات الأمل تأتي من حيث لا تدري، لا أقول أن تتشائمي ولكن دعي دوما الاحتمال الأسوأ أمامك ...

لا تتزوجي أبدا من شخص لا تحبينه، وتزوجي من شخص يحبك..

إذا رغبت في شيء وبقوة و كنت مقتنعة أنه ليس خطأ افعليه، ولا تلتفتي لرأي أحد، حتى ولو وقف كل العالم ضدك، العادات والتقاليد والمجتمع كلها هراء.. ارميها عرض الحائط، إن كانت تخالف مبادئك و قناعاتك ..

عندما لا تقتنعين بشيء لا تفعليه ، وعندما ترين أنك تفعلين شيئا من أجل أن يراك الآخرون تفعلينه وليس من أجلك أنتِ توقفي فورا عن فعله، لا تكوني مرائية أبدا، خاصة عندما يتعلق الأمر بالدين ..

عندما يتعلق الأمر بمبادئك كل شيء غير مهم بعدها..

مشوار الحياة سيكون صعبا في بعض اللحظات و يكون سعيدا في لحظات أخرى، الجميل في الحياة هو أنها ليست دائمة.. لا حزن دائم ولا فرح أبدي، مشواري في الحياة سينتهي قريبا لأمنحك الحياة ، كل ما يهم في هذه الدنيا هو أن تخرجي منها وأنت طاهرة، أن تخرجي وأنت راضية عن نفسك، وأن تحتفظي ببراءتك الأولى ، أن لا يتمكن هذا العالم رغم ما فيه من سوء من أن يدنسك، أو ينقل إليك عدوى السوء المنتشرة فيه .. كوني أنتِ و لا تتصنعي أبدا، فمن يحبك حقا سيحبك كما أنتِ ومن لا يريد أن يحبك لن يحبك حتى ولو كنتِ مثالية في كل شيء...

***

"لقاء"

"ومن أي النجوم أتينا لنلتقي أخيرا ؟ "

من نيتشه إلى لو

ديهيا 2011

قصة حبنا قصة جميلة جدا.. كل شخص يتمنى أن يعيش حبا كهذا ... كنت سعيدة جدا وقتها ..

كما كل قصص الحب الجميلة بدأت قصتنا كنت في المكتبة، كنت منشغلة في البحث عن كتاب لغسان كنفاني ، "أووه وجدته أخيرا" رحت لأحمله إذ بيد تمسك به قبلي ، شاب طويل أسمر ذو لحية خفيفة عيناه بنيتان كبيرتان ، التقت عيني في عينه للحظة بدأ قلبي في الخفقان سمعت صوته وعدت إلى وعيي " أنا أخذته أولا إنه لي " ، قلت " الكتاب لي لأني رأيته أولا"

-لا يمكن ..

-ولكنني أريده.

-مم عنوان جميل "أرض البرتقال الحزين " لغسان ؟

-نعم غسان كنفاني، رجل القضية، غسان الثائر بكلماته..

-فلسطينية ؟

-جزائرية بقلب فلسطيني ..

مد يده وقال:

- فلسطيني بقلب جزائري.. يزن.

مددت يدي في خجل و قلت:

-ديهيا

-ديهيا ؟ اسم غريب ، هل هو جزائري ؟

-نعم ، اسم أمازيغي ..

-أنت أمازيغية اذا ؟

-نعم ..

-تشرفت بك ديهيا .. سعيد بلقائك .. يبدو أنك مهتمة بالقضية الفلسطينية كثيرا ؟

-نعم أكيد، فلسطين قضية كل حر يغير على الأرض والوطن ، فلسطين قضية كل مسلم، قضية كل أحرار العالم..

-ممم ولمن سيكون الكتاب الآن لي أو لك؟

-مم لا أعلم

-لنعقد صفقة إذا..

-ههههه صفقة ؟

-نعم ستأخذينه الآن وعندما تقرئينه سآخذه أنا و أقرأه وبعدها سأعيده لك ليكون لك

-حسنا اتفقنا هههه سنلتقي هنا في نفس المكان والزمان بعد أسبوع لتأخذه ؟

-حسنا سيكون أسبوعا طويلا إذا... الانتظار يجعل الوقت أطول..

-إلى اللقاء..

-إلى اللقاء..

أشرت بيدي مودعة وذهبت و لكن قلبي وعقلي بقيا معه، لا أعلم ما الذي شعرت به أمام ذلك الرجل، عيناه عالم آخر، حديثه، نبرة صوته، وقفته، منذ أن رأيته في اللحظة الأولى عرفت أنّه لن يكون شخصا عابرا في حياتي..

"عرفت أن عيناك هما قدري"

كنت أسير في الطريق و أنا أفكر في ذلك الشخص الذي تحدثت معه في المكتبة لم يغادر تفكيري و لو لثانية ، "يزن" نطقت هذا الاسم بصوت عالٍ دون شعور مني ، كررت اسمه أكثر من مرة ، سحرني ذلك الشخص ربما، هل هذا هو الحب من النظرة الأولى ؟ هل هذا هذيان ؟ ما الذي يحدث معي ؟

وصلت إلى المنزل ووجدت أمي تجهز العشاء، كانت قد عجنت الكسرة التي لا تخلو مائدتنا منها ، لا يمكن أن يجهز غداء أو عشاء دون كسرة أو كما نقول بالأمازيغية "أغروم" و كانت تجهز شوربة فريك التي أحبها كثيرا.

قلت لها : أزول (مرحبا)

ابتسمت معي كما تفعل دوما عندما تراني :

- أهلا ..

-سأغير ملابسي و آتي..

صعدت الى غرفتي و أنا لازلت أفكر في ذلك الشخص والكتاب مازلت أحمله بيدي.

فور انتهائي من العشاء صعدت إلى غرفتي و بدأت في قراءة الكتاب، لم أتوقف إلّا عندما أنهيته، أنا من الناس الذين إذا بدأوا كتابا لا يتركونه إلا إذا أكملوه كل ، لا أستطيع أن أغلق كتابا دون أن أعرف النهاية خاصة إذا كانت رواية مشوقة ..

***

من الكتاب بدأت قصتنا التي لم تنته.. تكررت لقاءاتنا و كثرت أحاديثنا و تواصلنا أصبح يوميا ..

سألني مرة عن معنى اسمي ..

-ديهيا ؟ اسم غريب ، أخبرتني من قبل أنه اسم أمازيغي ولكنك لم تخبريني عن قصته.

-ديهيا هي ملكة امازيغية كانت تحكم شمال إفريقيا ، ضريحها متواجد حاليا في خنشلة. كانت امرأة قوية جدا، قاومت كل من يحاول السيطرة على هذه الأرض، كانت ملكة الأمازيغ خلال فترة الفتوحات الاسلامية، و كان الجميع يحبونها ، حتى المسلمين، فبدلا من كرهها لصدها لهم أصبحوا يحترمونها لأنها امرأة قوية ،وقد كان لها ابنان دخلا الإسلام ولكنها لم تسلم وبقيت على ديانتها ..

وحتى في معاركها مع المسلمين لم تقتل المسلمين وللم تدمر ولاية المسلمين في القيروان ، كان لمعركتها هدف وحيد هو إخراج المسلمين من منطقة حكمها لأنّها كانت تعتقد أنهم محتلون يطمعون في أرضها، ولم تكن تدري أنّهم مسالمين وهدفهم هو نشر الدين فقط .. قال عنها ابن خلدون : "ديهيا فارسة الأمازيغ التي لم يأت بمثلها زمان كانت تركب حصانا و تسعى بين القوم من الأوراس إلى طرابلس تحمل السلاح لتدافع عن أرض أجدادها "

-مم حسنا ، ديهيا المرأة القوية الشجاعة، وهل لك من هذا الإسم نصيب ؟

-نعم ، ربما أُشبهها، لكل شخص من اسمه نصيب ..

-نعم، الشعب الجزائري معروف بقوته وشجاعته، هو الذي طرد الاستعمار الفرنسي من العدم دون أن يمتلك أسلحة متطورة كعدوه، طردوا الاستعمار بسلاح واحد هو العزيمة، بلد المليون ونصف المليون شهيد، الجزائر قوية بنسائها ورجالها..

-الشجاعة تسري في دم هذا الشعب.

-أكيد ..

***

تعلقنا ببعضنا كثيرا .. أصبح يومي لا يكتمل دون الحديث إليه ويومه كذلك، أنا أعلم أنه يحبني و هو يعلم أنني أحبه من خلال نظراتنا لبعضنا لم يعترف أحدنا للآخر ولكن كلانا يعلم.

تكررت لقاءاتنا كثيرا في مكتبة الجامعة نتحدث في الكثير من المواضيع، عن الكتب، عن الحياة، عن الدراسة عن كل شيء ... كان عامي الخامس في الجامعة ، و كان يزن يجهز رسالة الدكتوراه.

الإعتراف كان في يو عيد ميلادي عندما أحضر لي رواية التائهون لأمين معلوف لأقرأها وأخبرني أنه بداخلها رسالة قد كتبها،و أنه علي أن أعده أنني لن أقراها إلّا عند وصولي إلى المنزل، سألته عن السبب فرفض أن يجيبني، ذهبت مسرعة إلى البيت ذلك اليوم وتوجهت مباشرة إلى غرفتي و كل شوق لأقرا ما كتبه ..

و كانت تلك رسالة الاعتراف وأول رسالة حب أرسلها لي:

أنت عمري .. حياتي .. نبض قلبي

أحبك إلى الحد الذي لا حد له

أحبكِ أكثر من حب الصوفية لموسيقاهم

أكثر من عشق الفارس الجاهلي لسيفه

أكثر من جنون كل العشاق على هذا الكوكب

حبي لكِ أجمل من كل الزهرات التي انفتحت في الربيع

و أكثر من قطرات المطر التي تساقطت في الشتاء

أشتاق لكِ في كل لحظة حتى وأنا معك

أحب الحديث إليكِ رغم أنني أحيانا لا أجد ما أقوله

لا يمكنني الاكتفاء منك..

حياة واحدة لا تكفيني لأشبع منك

عندما انظر إلى عينيكِ أشعر أنّ الكون يحتضنني..

كل ما أريده من هذه الدنيا هو أن أكون معك ، أن أنظر في عينيك إلى الأبد، أن أرى ابتسامتك، حركاتك، غمازتك لكي أشعر أنني أمتلك الدنيا وأنني أعيش معك و لأجلك .".

شعرت أنّ لي جناحان أطير بهما بعد قراءتي لهذه الرسالة، لم أجد كلمات تصف مقدار السعادة التي حلت بي لحظتها، انتظرت كثيرا هذه اللحظة، لم أكن مصدقة، قرأتها أكثر من مرة، قلبي يخفق بشدة، لم أدري ماذا أفعل بعد هذه الرسالة..

أمسكت هاتفي و كتبتُ: " و أُحبكَ جدا..."

لم أجد كلمات تعبر عن ما بداخلي سوى هاتين الكلمتين، أحيانا يكون ما بداخلنا أعمق من أن تصفه الكلمات و أكبر من أن تختصره الحروف، الحب سحر، قوة خفية تدفعك نحو الشخص وتجعلك تختاره هو دون غيره ليختصر الجميع ويلغي حضورهم كلهم ،أن تحب أحدهم يعني أن تشعر أنه أنتَ في مكان آخر ، هو معانقة الروح لروح أخرى لا تعرف عنها شيئا سوى أنّها تكملها، وهذا كان ما أشعره نحو يزن. هو الروح والوطن والحياة، هو الكل...

***

بعد فترة من علاقتنا وبعد أحاديثنا الطويلة اعترف لي في يوم ما أنّه في يوم تعارفنا قد تعمد أخذ الكتاب الذي كنت سآخذه لكي يبدأ حوارا معي و أخبرني أنّه قرأ ذلك الكتاب من قبل ولكنه تعمد أن يخبرني أنّه لم يقرأه لكي أعطيه له ..

-اووه غير ممكن، هل يمكن أن تكون قد فعلت هذا بي ؟

-كان خياري الوحيد، كنت أراقبك من بعيد لعدة أيام وكنت خجولا جدا، ولا أعلم ماذا سأقول لك إن تحدثت إليك فاتخذت الكتاب ذريعة، و لكنها خطة جيدة، أليس كذلك ؟

- أوقعتني في الفخ.

- وما أجمله من فخ، حصلت على أجمل عيون و أحلى ابتسامة.

- وماذا ستفعل لأغفر لك ؟

- ممم هل يكفي ان أشتري لك رواية جميلة، أعلم أنك سعيدة لأنني أخبرتك بهذا

-هل هذه رشوة أم ماذا ؟

-كل شيء في سبيل عينيك الجميلتين

- وماذا تخفي عني أيضا ؟

- ممم مثلا أنني لحقتك قبل لقائنا الأول وعرفت أنّك تدرسين في كلية الطب.

- أعلم أنك مجنون و لكن ليس لدرجة أن تلاحقني..

- أنا مجنون بك .. و المجنون بك هو أعقل العقلاء..

-أحبك ...

-ولم تحبينني ؟

-لم أجد جوابا لهذا السؤال .. أحبكَ دون سبب ، أحبكَ لأنك أنتَ ، لأن كل شيء فيك يأسرني، لأنك أجمل ما حدث لي ، غيابك هو أسوأ ما قد يحدث، أحببتكَ رغما عني، لأنني لا أمتلك خيارا آخر إلّا أن أحبكَ ، لأن شخصا مثلك لا يستحق إلا أن أحبه، أحبكَ وكفى ..

و بعد أن أحببتكَ صار لي جناحان أحلق بهما عاليا مع الطيور، لا يستطيع أحد أن يمسك بي لا يمكن لأحد أن يمنعني من الفرح لأنني معك امتلكت كل الفرح في العالم ، أستطيع الان أن أضحك من أعماق قلبي بكل ما أوتيت من قوة ، دامت شجرة ياسمينكَ مزهرة في قلبي ...

***

أريته أنا أيضا ما كتبته قبل أن أعرفه ..

"لست جميلة كفتيات المجلات .. و لا أملك قوامهن .. و لست من الفتيات اللواتي يفكرن طوال الوقت فيما سترتدينه وما لون طلاء أظافرهن وأي نوع من الماكياج يستعملن ولا أملك صور تسريحات شعر جديدة وموضة العام الجديد على هاتفي، لم ابحث يوما على ڤوڤل على وصفات لتبييض البشرة، لا أقيم الدنيا عندما أرى حبة في وجهي، آكل كل ما يخطر ببالي دون التفكير في وزني،أنا أنثى عادية

إلى أبعد حد .. أظافري غير مطلية وشفتاي مشققتان وهالات سوداء تحت عيناي من السهر الكثير، شعري مجعد وغير مرتب دوما، فوضوية أحيانا، لا أريد لأحد أن يرى جمالي الخارجي المصطنع ويفاجئ لاحقا بعقل فارغ، أريد رومنسية بريئة، كأن تحب عيناي وهما دون كحل، أن تحب شعري في كل الحالات، أن تحب ملامح وجهي دون أرسم حواجبي و أضع مكياجا يخفي ملامحي، أن اعجبك حتى و أنا بهالات سوداء تحت عيني،أن تحب شفتاي دون أحمر شفاه، يداي دون طلاء أظافر، أن تحب فوضاي .. أن تحبني لأنني أنا، أن تحب ذاتي، داخلي، أنايَ.. قلبي الذي يحب دون حدود، عقلي الشغوف دوما لمعرفة المزيد والذي لا يقتنع بشيء إلّا بصعوبة، عنادي، روحي التي تحلق عاليا دوما تبحث عن روحك، فؤادي الذي لا يخون مهما حدث.. أريد حبا أسألك فيه ولم تحبني لهذه الدرجة؟ فتجيبني أحبكِ لأنك أنتِ ! و لست أي أحد"

-مم أعجبني جدا ما كتبتيه و لكن لمن هذه الرسالة ؟

- وقتها لم أدري لمن كتبتها و لكنني الآن أعلم جيدا لمن ههه

-ممم حسنا، إنّها لي بالتأكيد ...

و ابتسمنا ...

***

-يزن، أنا أفكر في شيء ما ..

-ما هو ؟

-هل هذه الحياة عبثية ؟ هل هي صدف ؟ هل وجودنا في مكان ما في وقت ما صدف؟ هل التقاءنا بالأشخاص صدف ؟ أم كلها أقدار ؟

-كل شيء مقدر بالتأكيد، عملك، دراستك، الأشخاص الذين تعرفينهم، الأماكن التي تذهبين إليها، حتى وقتها مقدر، وعليك أن تؤمني بذلك، وكل شيء مقدر لنا يخفي شيئا جميلا، حتى لو لم نعرفه لحظتها و لكن سنعرف في وقت لاحق أنّه كان أحسن خيارات الحدوث، سأروي لكِ قصة ...

-تفضل، تعرف أنني أحب قصصك ههه

-يحكى أن وباءا اجتاح الشام و كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رحلة مع أصحابه إلى الشام فأخبره أبو عبيدة أن وباءا قد اجتاح الشام فاختلف الناس في الرأي هل يذهبون أم لا، فقرر أمير المؤمنين أن لا يتقدموا فسأله أبو عبيدة : أتفر من قدر الله ؟ أجابه عمر بن الخطاب: نفر من قدر الله إلى قدر الله، هل فهمتني الآن ؟ لا يمكننا أن نهرب من أقدارنا أو نغيرها.. كل ما في هذه الحياة مقدر و نحن ما علينا إلا أن نعيشها كما هي فقط.

-نعم ، فهمتك الآن ، دمتَ لي يا أجمل أقداري ..

-دمتِ لي ..

***

يزن من الناس المحبة للكتب كثيرا و هو كثير المطالعة ، يكتب في الكثير من الأحيان و تروقني جدا كلماته ودائما ماكنت أخبره أنّني من المعجبين بكتاباته ..

سألته مرة: لم نقرأ ونكتب ؟ بعيدا عن حبنا للكتب وشغفنا بالقراءة والكتب..

فـأجابني:
-نقرا لنرى العالم ونكتب لنساعد الناس على فهمه، كل كاتب يكتب جملة يعبر فيها عن شيء في الحياة، عن شعور يمر به للحظة ، عن موقف في حياته، يستطيع بذلك أن يجعل القارئ يشعر به،يفهم أكثر،أن يتكلم باسم القارئ بكلمات لم يستطع القارئ أن يكتبها، الكاتب هو لسان الكثيرين الذين شعروا ولكن عجزوا عن التعبير، هو قلمهم وساعي البريد الذي يوصل الفكرة ..أن يكتب شخص ما شيئا وتقرأه أنت وتشعر أنه عبر عن كل ما تشعر به هذا بحد ذاته معجزة ..

-ولكن هل يكفي أن يكون أسلوبك جميلا وطريقتك في التعبير جيدة لتستطيع أن تكتب ؟

-الكتابة إحساس قبل أن تكون كلمات وأسلوب ، الكتابة شعور وألم وفرح، الكتابة وجع، أن تكتبي يعني أن تختصري شعورك وتجمعيه في بضع كلمات مع أن المشاعر لا يمكن أن تجمع كلها في كلمات ولكن تبقى محاولة للتعبير عما بداخلنا .. نكتب لكي لا نختنق.. كما قال أورهان باموك : الأدب هو موهبة أن نحكي حكايتنا الخاصة كما لو كانت تخص الآخرين، وأن نحكي حكايات الآخرين كما لو كانت حكايتنا الخاصة **"رحيل"**

"وقاتل الجسم مقتول بفعلته، وقاتل الروح لا تدري به البشر "

جبران خليل جبران

صوفيا 2012

"ودقيقة صمت على أرواح المخذولين، على الرسائل التي لم يتم الرد عليها، على قصص الحب التي لم تكتمل، على الطرف الواحد الذي يتخفى دوما هروبا من الخذلان، على تلك الابتسامة عند الانكسار، على الشعور أن ذلك الأحد الذي تموت ألف مرة في هواه لا يهتم، على الاهتمام الذي لا تجد مقابلا له ، على الغصة في حنجرتك،على دموعك المكبوتة خوفا من أن يكشفك أحد،على نظرتك إليه خفية عندما لا ينظر إليك، على اللمعة في عينيك عند رؤية ذلك الأحد الذي لا يراك ، على انكسارك،على ألمك، على الخذلان، على الموت البطيء..

و صمت أبدي على الأرواح التي ستغادر قريبا.. و إلى الأبد.. على موتها "

***

صوفيا، الفتاة الهادئة، لا نسمع صوتها في البيت إلّا في القليل من الأحيان، غارقة دوما في كتبها أو في سماع الموسيقى وأغاني فيروز و ماجدة الرومي و إيدير، صوفيا معلمة لغة عربية في المدرسة الابتدائية، تحب تلاميذها كثيرا ويحبونها أكثر فهي بشوشة ولطيفة جدا في تعاملها معهم، هي شخص مسالم إلى أبعد حد، لا تزعج أحدا بأي شيء، منظمة جدا، صديقتها الوحيدة هي قطتها الصغيرة "مينوش " قطة صغيرة بيضاء وهادئة كصوفيا، لا تخرج أبدا من البيت، تطعمها كل يوم، تستقبل كل أفراد البيت فور عودتهم، وتهرب كلما رأت شخصا جديدا عليها، صوفيا متعلقة جدا بها لأنّها كانت هدية عيد ميلادها التي أحضرها لها أبي في عيد ميلادها العشرين قبل عام، صوفيا ليست اجتماعية أبدا، هي شخص انطوائي جدا، الشخص الوحيد الذي كانت مقربة منه هو أنا، لأنني كنت دوما معها والشخص الوحيد الذي استطاع أن يدخل عالمها الصغير وأن يصبح جزءا منه هو وسيم، استطاع أن يفعل ما لم يستطع أحد قبله أن يفعله، أصبحت تتحدث معه طوال الوقت ، مع أنّها من الناس الذين لا يتحدثون كثيرا، و مع أنها من الناس الذي لا يدخلون مواقع التواصل الاجتماعي إلّا نادرا إلّا أنّها بعد معرفتها لوسيم اصبحت فعالة فيها و متصلة طوال الوقت فقط من أجل أن تحادثه، وجدت فيه الشخص الذي يفهمها ويشبهها، فوسيم أيضا شخص هادئ جدا مثلها، له صديقين فقط هما يزن و مصعب ..

التقيا المرة الأولى عن طريق الصدفة فقد كنت معها ذهبت للقاء يزن الذي كان مع وسيم، عرفناهما على بعضهما ولم نكن نعلم أن هذان الاثنان سيقعان في الحب .

بعد ذلك اللقاء سألتني عنه كثيرا كما لم تفعل أبدا من قبل مع شخص آخر، عرفت وقتها أنها أعجبت به، كنت خائفة أن لا يبادلها نفس

الشعور فتنكسر، و لكن يزن أخبرني أنه حدث نفس الشيء مع وسيم وأنه طرح عليه نفس الاسئلة ..

***

كانت كل الأحداث تسير بسرعة اعترافنا أنا ويزن بالحب لبعضنا، أحاديثنا الطويلة، عرضه للزواج بي بعد فترة ليست بطويلة من تعارفنا..

كان يوما عاديا ككل الأيام الروتينية التي نعيشها اتفقنا أن نلتقي في مكاننا المعتاد في الجامعة ذهبت للقائه ، كانت الأمطار تتساقط ، أخبرني أنه سيحادثني في موضوع مهم ، فأراني الخاتم و قال : "وهل تقبلين بهذا الشاب العادي جدا الذي يحبك أكثر من أي شيء في العالم أن يكون زوجا لك و أن تكوني معه إلى الأبد ؟ "

أجبت فورا ودون تفكير: " أقبل "

و بعدها جاء حديثه مع أبي وحفل خطبتنا ،كانت لحظات السعادة في حياتنا تمر بسرعة، أشعر أن الوقت يجري بسرعة عندما نكون سعداء..

في يوم خطبتي مع يزن ، كنت سعيدة جدا،ارتديت فستانا بنفسجيا طويلا ، لأن يزن يحب هذا اللون كثيرا، وضعت القليل جدا من مساحيق التجميل لأنني كنت أريد ان أبدو على طبيعتي، قلبي يدق بسرعة كما لم يحدث من قبل، أحضر يزن باقة توليب أبيض لأنها الورود المفضلة لدي وعلبة شوكولا .. ارتدى بذلة رسمية سوداء و ربطة عنق بنفسجية كما اتفقنا من قبل .

قررت أنا و عائلتي أن نقيم حفل غداء عائلي بهذه المناسبة، ولأن عائلة يزن ليست متواجدة في الجزائر فقد قرر أن يحضر معه والد و والدة وسيم ، جهزنا أكلات جزائرية، شوربة فريك ، لحم الحلو، حميس، طاجين الزيتون، وشخشوخة على الطريقة القبائلية، نظرات الحب بين وسيم وأختي كانت واضحة ووحدنا أنا و يزن عرفناها، كان ذلك اليوم من أسعد الأيام في حياتنا، همست في أذنه " و أخيرا أنت لي أمام الجميع ، و أستطيع أن أحادثك وقتما أشاء و أينما أشاء دون خوف من أحد .. أنت الآن لي وإلى الابد .."

***

مرت تلك الأيام الجميلة وكلنا سعداء بذلك..

***

في يوم ما و بينما نحن نتناول العشاء أنا وأمي وأبي وصوفيا، كانت أختي تبدو شاردة طوال اليوم، و لم تتناول طعامها، فور انتهاءنا شرعنا أنا وهي في تنظيم الطاولة وغسل الصحون سألتها ما بك ؟ لم أنت شاردة هكذا؟ أخبرتني أن وسيم قد تغير في الآونة الاخيرة وأنّه لم يتصل منذ أيام وأن هذا ما أزعجها، أخبرتها أن لا تقلق وأن كل شيء سيكون على ما يرام وأنه ربما يملك سببا، أخفيت عليها أن ذلك أقلقني لأن يزن أخبرني بنفس الشيء وأخبرني أنه قلق عليه وأنّه رآه يتحدث مع أشخاص غرباء لم يعرفهم يزن فأخبره وسيم أن كل شيء على ما يرام و أن لا يزعج نفسه و لكن يزن لم يكن مطمئنا، و وسيم اختفى منذ ذلك اليوم وهاتفه مغلق طوال الوقت ولكنني لم أخبر صوفيا بأمر اختفاءه، فور عودتي إلى غرفتي وجدت أربع

اتصالات من يزن، قلقت لأنه غير متعود على الاتصال أكثر من مرتين، كنت خائفة أن مكروها حدث لوسيم، اتصلت به فورا، كان صوته صوت شخص قلق :ديهيا ، لقد وجدنا وسيم، لقد ذهب مع الحراقة ، أرسل الى أمه رسالة الآن وأخبرها أنه وصل إلى مرسيليا سالما، حاولي إخبار أختك بالموضوع وهدئيها وأخبريها أن لا تقلق، سأحاول التواصل معه ليعود ، ولا تقلقي أنت أيضا ... قلت حسنا وأغلقت الهاتف فورا..

لم أصدق للوهلة الأولى ما حدث، كيف لشاب مثل وسيم أن يفعل بنفسه هذا، تخرج من الجامعة منذ ثلاث سنوات، كان من الطلبة الأوائل في كلية الاقتصاد، ولكن الحظ لم يسعفه بعد التخرج بحث مطولا عن عمل فلم يجد شيئا، كل مناصب العمل وكل المناصب في المسابقات كانت مهيأة لأصحاب المعارف، فأبناء الشعب البسيط كوسيم ليس لهم الحق في العمل في وطن كهذا دون أن يكون صاحب "معريفة"، والده استاذ مدرسة وأمه ماكثة في البيت وله أختان وأخ صغير، أصبح مع مرور الأيام يشعر باليأس من الوضع، جرب كل الأعمال، قهواجي، حارس مدرسة، بائع في محلات الآخرين ولم يستطع تحمل الذل، شعر أنّه عالة على عائلته، ففي الوقت الذي بنى كل زملائه الذين كان دوما متفوقا عليهم حياتهم ووجدوا مناصب عمل وتزوجوا، بقي هو تائها وسط البيروقراطية والانتهازية والرشوة، الإنسان الشريف لا يستطيع أن يعيش مطولا في هذا الوطن الذين نهبوه.. وسيم يحب صوفيا كثيرا ولكنه لم يستطع التقدم لخطبتها لأنه يدري أنه لا يستطيع أن يبني عائلة دون أن يملك عملا مستقرا وبيتا و هو ليس شابا يقبل أن تعمل زوجته وتستيقظ كل يوم في الصباح لتذهب إلى عملها ويبقى هو ليتجول في الشوارع ضائعا دون عمل، لا يمكنه أن يعذبها معه ويتركها تجرب وتحس بما يشعر

به هو كل يوم من ظلم في هذا البلد، وضعه أصبح من كثرة تكراره عاديا جدا هنا، فنصف شباب الجزائر الجامعيين بطالون أو يعملون عملا خارج مجال دراستهم، قوارب الموت تأخذ المئات كل يوم، يبتلع البحر شباب الجزائر بالعشرات يوميا. يفضلون أن يأكلهم الحوت في البحر ولا أن يأكلهم الدود هنا، هنا تأكلهم كل يوم البطالة و الفراغ، تنهش عظامهم ويشربون الذل كل لحظة ، فكم من شاب تركته حبيبته لتتزوج غيره لأنّه بلا عمل وبلا مستقبل ، لتختار ذلك العريس الذي لم تعرفه يوما فقط لأنه يملك بيتا وسيارة وعملا، لتترك حبيبها يغرق في الضياع، ليغدر مرتين، غدره الوطن مرة، وغدرتها هي مرة أخرى ، الشركات هنا ترمى السير الذاتية للشاب فور خروجه من المكتب فقط لأنّه لا يملك معريفة أو لأنّه لم يعطى العامل في المكتب "قهوة" أو "تشيبا" كما يقال، تعددت الأسماء وزيفت ولكن الفساد هنا واحد، الناس الذين يجدون عملا بمكالمة هاتفية واحدة أو بجملة "بعثني ليك فلان " أكثر من ثلاث أرباع العمال ...

وسيم أخطأ بقراره هذا ولكنني لا ألومه لأنه اختار هذه الطريق ولا ألوم أي شاب فعل قبله هذا أو سيفعله بعده ، لا أحد سيشعر بما شعر به هو في كل مرة طلب عملا وطردوه، وفي كل مرة أخبروه أنه قد عين شخص آخر مكانه و هو يدري و متأكد أنه أفضل من ذلك الشخص الذي تم تعينه ، شعوره بالخيبة و الانكسار والحقرة في تلك اللحظة لا يعادله أي شعور آخر ، فأن يأخذ أحد ما دون مستوى مكانك الذي تستحقه و الذي عملت من أجله هذه هي أقصى درجات الحقرة ، شعوره أن لا يملك حقا في بلده و أن الوطن الذي كان يجب أن يحتويه وأن يحقق فيه أحلامه قد تخلى عنه ، هذا ما يدفع كل شاب محب لهذا الوطن أن يغادره، فوطن لم يعد يحتوي أحلام

مواطنيه ولم يعد يتسع لأمنيات شبابه يدفعك أن تغادره دون أن تشعر ولو بذرة من تأنيب الضمير ، لأنك استنفذت كل أسباب البقاء ولم يعد هناك داع للوجود هنا، رسالة وسيم كانت قصيرة ومختصرة إلى أبعد حد " أمي، أبي، لقد وصلت إلى مرسيليا ، سامحاني " ربما هو لم يستطع أن يكتب أكثر من كثرة الألم، أحيانا لا تجد كلمات معبرة عما بداخلك، استنفذت الكلمات ورحلت .. عندما يتخلى الشاب عن كل شيء ويتركه وراءه، هذا يعني أنه حاول بكل ما يستطيع أن يبقى ولكن أسباب البقاء انتهت .. أن يكون بعيدا عن أمه أفضل من تراه كل يوم يتعذب أمامها دون تستطيع عمل شيء له وبعده عن والده أفضل من أن يشعر كل يوم يتأمل في وجه أبيه أنّه عالة عليه، رغم أن أباه لا يشعر بذلك و لكنذه بمجرد التفكير في الموضوع يشعر أنّه هو من يجب أن يساعد والده وليس العكس .

اتصل بي يزن :

-كيف حالك؟

-لست بخير أبدا ..

-أناكذلك

-أي وطن يحزن مواطنيه لهذه الدرجة، أي وطن يجعل الحلم الأول لشبابه هو الهجرة ؟ هل فقد الناس حبهم لوطنهم ؟ أم أنّ الوطن رفض إحتوئهم ؟ ما الذي يجعل شخصا يترك أهله وذكرياته وجذوره و يرحل..

-هل برأيك لو وجد هذا الشاب أمانا في وطنه وعدلا وعملا.. هل سيرحل ؟ بالتأكيد لن يذهب، ولكن أن تجدي الرشوة والبيروقراطية

متغلغلة في جذور كل شيء، بالتأكيد سترحلين..

-يؤلمني حال بلدي .. تؤلمني الجزائر ، حبنا لها يؤرقنا ، كم يؤلمني منظر شباب الجزائر في قوارب الموت نحو المجهول ، يفضلون الموت على البقاء هنا، لهذه الدرجة أصبح الوضع سيئا هنا، يدعونهم "حراقة " لأنهم يحرقون وثائقهم في الطريق ولكن هم في الحقيقة يحرقون أكباد الأمهات ، يحرقون عمر أباءهم بعد الرحيل ، يحرقون قلوب أهاليهم يحرقون مستقبل هذا الوطن...

-لقد كان ضائعا في الفترة الاخيرة تحدثت معه قبل قليل كنت أريد أن أقنعه بالعودة و لكنه يائس جدا، ضائع وحزين، ولم أعد ألومه على رحيله ، كل ما يهم الآن أنّه وصل سالما، صبر كثيرا هنا .. ربما سيجد هناك ما يبحث عنه .. و ربما سيعود عندما يجد أنّه أخطأ في قراره بترك أهله .

-أن تعاني في وطن الآخرين أحسن من أن تعاني في وطنك، على الاقل هناك ليس أهل بلدك هم من يذلونك ..

***

رحيل وسيم كان صدمة بالنسبة إلى صوفيا، هي التي أحبته كثيرا وكانت تحلم دوما أن تواصل حياتها معه، ذهب وتركها وحدها ، تخلى عنها وعن أهله وعن كل شيء يربطه بهذا الوطن ، أصبحت أكثر هدوءا بعد غيابه، تبكي دوما في الليل قبل نومها على حالها وحاله ، قالت لي أكثر من مرة أنها إن لم تتزوج به فلن تتزوج بغيره قررت أن تبقى وحيدة بعده، لا أعلم إن كنت محقة لو وصفته بالخائن فهو الذي وعدها أن يبقى بجانبها دوما ولم يبقى، أم أنني سأصف

الحياة بالخائنة، لأنها غدرته في أحلامه وفي وطنه .. علمونا منذ أن كنا صغارا شعار "إني اخترتك يا وطني حبا وطواعية.. إني اخترتك يا وطني سرا وعلانية " ولكن لم يخبرونا أن هذا الوطن لن يمنحنا شيئا في المستقبل سوى الضياع والبطالة واليأس في ربيع العمر، لا ربيع هنا، هنا خريف وشتاء طويلان جدا، يأمروننا أن ندرس من أجل المستقبل ،" اجتهد من أجل مستقبلك"، تعلمنا واجتهدنا ونحن الآن في ذلك المستقبل ولكننا لم نجد إلّا أحلامنا قد تبخرت في هذا المستقبل ..

مؤلم جدا أن تعيش في وطن لا تحلم إلّا بمغادرته، حال وطني يؤلمني ، يشعرني بالأسى، أحلم بوطن تدعم فيه مواهب الشباب، وطن لا يهان فيه أحد ولا يستهزأ فيه بأحلام أحد، وطن لا يهان فيه معلم، وطن لا يضرب فيه تلميذ، لا يسرق فيه حق أحد، لا يهان فيه طالب جامعي، وطن تقدر فيه المواهب ويكرم فيه من يستحق التكريم ، وطن لا يحتقر فيه مواطنوه ... وطن لا يضيق على أحلام أحد..

الفقراء الذين لا يملكون شيئا في حياتهم سوى قلوبهم البيضاء وعفويتهم ، يرون حقوقهم مهضومة ومنهوبة منذ زمن، العرق في جبين العامل البسيط على الطريق و الشمس التي أحرقته بحرارتها، الجدة التي ترى ابنها الذي لم يستطع توفير لقمة العيش لأولاده ، ذلك الأب الذي يرى دموع ابنته التي تقطع حذاءها ولم يستطع أن يوفر لها حذاءا جديدا، الأب الذي لا يأكل حتى الشبع لكي يأكل أبناءه ويشبعوا، الأب الذي يحرم نفسه مما يريده ليوفر لأولاده مصاريف الأدوات المدرسية ، الفقراء، المحرومون، الجائعون ... كيف لا يتخلون عن وطن تخلى عنهم منذ زمن ؟

***

بدأت القصة في ذلك اليوم العادي جدا في شهر أفريل عام 2000 ، يوم ربيعي، الجو معتدل، الشوارع فارغة إلا من طلاب المدارس والعمال، ذهبت كعادتها إلى مدرستها، كانت في عمر التسع سنوات،أنيقة كعادتها ترتدي فستانها الوردي، ومأزرها الأبيض، حذائها أبيض فيه وردة وردية كما تحبها هي، وجواربها البيضاء الناصعة التي تغطي أرجلها الصغيرة، شعرها أسود قصير أمسكته بمساسيك وردية صغيرة واحدة على اليمين وأخرى على اليسار مع ضفيرتين صغيرتين، درست صباحا وخرجت من مدرستها لتعود إلى البيت، أوصلت صديقتها الى البيت وأكملت الطريق وحدها ، بخطوات بطيئة و مرحة كالعادة كانت تسير، الطريق خالية، اقتربت من الوصول إلى البيت، إذ بها تجد رجلا ذو لحية سوداء، ملابسه رثة، ينظر إليها بنظرة مفزعة،إنّه جارهم الإرهابي التائب الذي عاد من الجبل قبل سنة بعد قانون المصالحة الوطنية الذي يسمح بإرهاب العشرية السوداء التائبين أن يسلموا أنفسهم و أن لا يعاقبهم القانون بعد تسليمهم لأنفسهم أسلحتهم ، نظرته مختلفة هذه المرة ، ليس كما تعوّدتها عندما تراه عندما تكون مع والدها، حقد وشرارة في عيونه المخيفة ، ابتسم بخبث، اقترب منها، حاولت أن تسرع في خطواتها، أمسكها من ذراعها بقوة و أخذها الى زاوية نائية ،هذه الطريق خالية دوما في هذا الوقت من النهار، "أبعد يدك أنت تؤلمني" ، "لا تخافي يا صغيرة" ، شعرت بالرجفة وقلبها بدأ بالخفقان بقوة، حاولت الهروب و لكنّه كان أقوى ...

انتهى من فعلته ، "لا تخبري أحدا بما حدث و إلّا ستكون العواقب وخيمة " لم تكن تفهم ماذا حدث ولكنها عرفت أن ما حدث سيء، سيء جدا ..

بدأت في الجري بسرعة ، الدموع في عينيها، وصلت الى البيت متأخرة وبختها أمها على التأخير، "أخبرتك أن تسرعي في الطريق، وأن لا تلعبي مع صديقاتك في الطريق إلى البيت، تعلمين جيدا أنني أقلق عليك " لم ترد عليها بأي كلمة، فهي متعودة على التأخير والتوبيخ و لكن سبب التأخر مختلف هذه المرة.

عدت إلى البيت من المتوسطة كنت في عمر الثلاثة عشر سنة وقتها، شعرت أن صوفيا ليست بخير ولكنني كنت أعتقد أنه شجار عادي مع أحد زميلاتها في المدرسة وستكون بخير بعد مدة، أصبحت بعد ذلك اليوم انطوائية ومنعزلة، حساسة جدا، تبكي لأتفه الأسباب.

لم تخبرني صوفيا بأي شيء وقتها، كنت صغيرة مثلها ولم أكن افهم جيدا، ولم أعرف أو أفكر في سبب تغيرها.

انتقلنا من ذلك المكان إلى قسنطينة بعد سنتين لأنّ أبي وجد عملا أفضل في قسنطينة .

قسنطينة المدينة العريقة، مدينة الثقافة، مدينة الحجر العتيق والجسور المعلقة، هي مدينة موسيقى المالوف و الأندلسي، لا يمكن لأي زائر أن لا يعشق هذه المدينة ، كتب عنها الشعراء وغنى لها الفنانون وعزف فيها الموسيقيون، عريقة بشوارعها، بأزقتها بمحلاتها ومكتباتها، لا يخلو شارع فيها من مكتبة ، مدينة الكتب والكتّاب والعلماء والجامعات، مسجد الأمير عبد القادر، قنطرة سيدي راشد، قنطرة سيدي مسيد، مدينة لا تقبل إلا أن تعشقها...

***

في يوم من الأيام وبينما نحن في غرفتنا ندرس التفتت إليّ وسألتني

-ديهيا ، ما رأيك في الاغتصاب ؟

سؤالها كان مباغتا وفجائيا وفي وقت غير متوقع..

-فعل شنيع ومتوحش، ولكن لم هذا السؤال ؟

-سؤال عادي، مجرد فضول...

نظرت إليها، كان الارتباك باد عليها، صمتت مطولا وأردفت: حسنا سأخبرك بشيء ولكن عديني أن يبقى كل شيء بيننا، حكت لي كل ما حدث والدمعة في عينيها، بكيت معها..

وخبأت ذلك السر لسنوات .. دفناه معا ... سألت عن المجرم فأخبرتني وعرفت أنّه رحل من البلد منذ زمن، ولم يعد الى الجزائر..

***

ديهيا 2012

استيقظت في ذلك الصباح باكرا كعادتي لأذهب إلى المستشفى لأعمل ، وجدت صوفيا نائمة على غير عادتها، فهي تستيقظ كل يوم باكرا لتجهز نفسها لتذهب إلى عملها ولكنها اليوم لم تستيقظ ، ذهبت إليها لأوقظها فتحت عيناها بصعوبة وأخبرتني إنها متعبة وأنّ رأسها يؤلمها وأنها لن تذهب إلى العمل اليوم ، تفهمت وضعها لأنّها بكت كثيرا في الليل، جهزت نفسي وذهبت إلى الجامعة ، بينما كنت طريقي إلى جامعتي ، إذ بأمي تتصل بي أسرعي إلى المستشفى صوفيا ليست بخير، أغلقت الهاتف فورا والرجفة في يداي، قلبي يدق بسرعة ، اللهم إنّي أسالك لها السلامة ... شعرت بندم شديد لأنني تركتها وحيدة في الصباح وأنا أعلم أنّها ليست بحال جيدة...

كنت أعتقد أنها حالتها النفسية استقرت بعد فترة العلاج التي قضتها مع الطبيب النفسي قبل ثلاث سنوات، و لكن حالتها عادت إليها الآن، سنواجه فترة صعبة أخرى...

أتذكر جيدا ما حدث في ذلك اليوم ، كانت بعمر العشرين و كانت محاولتها الأولى للانتحار، كان من أسوء الأيام التي مرت في حياتي، وجدتها واقعة على الأرض غارقة في دماها ،شريانها مقطوع و الدم في كل مكان، صرخت بأعلى صوت اتصلت بالإسعاف و أخذناها إلى المستشفى، خسرت الكثير من الدم تبرعت لها أنا وأمي، انتظرنا كثيرا لتعود إلى وعيها ، دقائق الانتظار تلك

كانت تعادل سنينا من الألم ، الشعور بأنني سأفقد روحا عزيزة عليّ كان موتا ..

وقد عاد ذلك الخوف مرة أخرى ، وبنفس الطريقة عدنا إلى نفس الألم، هذه المرة بطريقة مختلفة، وصلت الى المستشفى وجدت أمي تبكي وأبي تائها يبكي هو أيضا ، من النادر جدا أن يبكي ولكنه في المستشفى بكي و بكل ما أوتي من دمع، سألت أمي ماذا حدث فأخبرتني "تناولت علبة دواء وقاموا بغسل معدتها لتعود إلى وعيها ..."

عند عودتنا إلى البيت وجدتها قد كتبت في مفكرتها الصغيرة :

"الشعور أن أقرب الناس إلى قلبك أبعدهم عنك مسافة هو شعور قاتل، والشعور أن الشخص الذي يعني لك كل شيء أنت بالنسبة له لا شيء، هو شعور أنك منفي ومهجور وغريب إلى أبعد حد، شعور أن يتركك أحدهم يعادل ألم رصاصة على الرأس، تجعلك تصرخ، تتخبط على الأرض، تغرق في دماك، تصعد روحك إلى السماء ، تموت، تحترق دون أن يشعر بك أحد، تتبخر وحيدا في الهواء، تغادر روحك تحاول الصراخ ليسمعك الجميع ولكن لا أحد يراك أو يسمع صوتك، أنت منسي، مهجور، غير مرئي، أنت لا شيء .. تشعر بسواد، تجويف في قلبك يحاول جلب كل السوء في العالم ليأتي به إليك، كرهك لذاتك يزيد كل يوم، ثقة في نفسك تصبح منعدمة، تشعر أن الشيء الوحيد الذي تمنيته في الحياة وهو روح تفهمك غير موجودة، تشعر أن الروح التي اعتقدت أنّها تكملك قد خنقتك بكل ما تملك من قوة و غادرتك ... تبحث مطولا عن خطأك، عن نقصك، عن تقصيرك فلا تجده، تفهم أن القدر غدرك، قتلك مرة أخرى..

الشخص الذي أعطيته قلبك كسره ورحل والشخص الذي منحته روحك مزقها وذهب.. "

احتضنتها بقوة وبكيت كثيرا، لم أجد كلمات أواسيها بها سوى " نحن نحب جدا، لا تخيفينا عليك مرة أخرى، أرجوك..

مرت صوفيا بعلاج نفسي طويل و تحسنت حالتها بعد ذلك ولكن بعد مغادرة وسيم عادت إلى حالتها، وأصبحت حزينة مرة أخرى..
الجريمة البشعة التي كانت صوفيا ضحيتها في طفولتها جعلتها حزينة جدا ومكتئبة طوال الوقت، أصبحت منعزلة إلى أبعد حد، تحاول دوما أن تكون بعيدة عن الجميع، منكسرة وحزينة، لا تثق في أحد، غرس ذلك في نفسها كرها لذاتها، أصبحت تكره نفسها كثيرا ولا تستطيع أن تثق في نفسها، رغم جمالها وتفوقها الدائم في الدراسة إلا أنها منعزلة، أجدها في الكثير من المرات تبكي عندما تبقى لوحدها، تنتابها كوابيس في الليل واستيقظ أكثر من مرة على صراخها جراء الخوف والألم النفسي الذي تشعر به، لم تخبر أحدا بما حدث معها ، إلا أنا وطبيبها النفسي، المغتصب يعرى العالم من إنسانيته، هو وحش على هيئة إنسان، تكررت مشاهد القتل واغتصاب الأطفال في الجزائر في السنوات الاخيرة، أصبحت الامراض النفسية منتشرة في هذا المجتمع، أصبحت تنخر عظام الناس، لا يشعر أحد بألم الشخص المغتصب إلّا المعني بالأمر خاصة إذا كانت الضحية فتاة، المجتمع يبقى صامتا وأصبح فاقدا لإنسانيته في غياب عدالة صارمة وفي غياب الضمير الإنساني .

يلوم الناس الشخص المنتحر ولا يتفهمونه، ولو أنّ أحدا من الناس الذين يلومونه على ما فعل شعر بنفس ما يشعر بها لما لأمه أبدا، ولكن الأخرين يحكمون فقط على الشخص دون التفكير في ظروفه

وما مر به ، الانتحار خطيئة ولكن الاغتصاب والظلم والخيانة والتجاهل خطايا اكبر .. الشخص الذي حاول الانتحار كان يحتاج حضنا يحتويه، كان محتاجا لشخص يفهمه، كان محتاجا لمجتمع يدعمه.. لا مجتمعا يحكم عليه... الانتحار محرم في ديننا، لأنّ الشخص قوي الإيمان سيتمسك بحبل الله ويعلم دوما أنّ الله مع في كل خطوة.. ولكن الإنسان ضعيف أحيانا .. وهذا ما حدث مع الكثيرين الذين رحلوا... رحلوا لأنّهم لم يجدوا من يفهمهم، بعكس ما يقول الناس إنّهم متشائمون أنا أرى العكس، أرى أنّهم كانوا متفائلين أكثر من اللازم ولأنهم كانوا يعانون دوما من خيبات الأمل جراء تفاؤلهم الزائد انكسروا وكان انكسارهم مدويا، كانوا أكثر الناس حبا للحياة ولكن الحياة كانت تعطيهم وجهها البشع دوما فاختاروا أنّ يغادروها، هم أكثر شجاعة من أي أحد لأنه تشجعوا وواجهوا الموت الذي يخاف منه الجميع ، لم يكونوا محقين في اختيارهم ولكن لا يمكن أن نلومهم على ذلك الاختيار ..

ستبدأ مرحلة جديدة من العلاج ...

"عندما كنت صغيرة كنت أعتقد أن الظلام و ذئب ليلى هما أكثر ما يخيف في العالم ، ولكن عندما كبرت عرفت أنه في الحياة هناك أشياء مخيفة أكثر، الانكسار، الوحدة ، الخذلان ، خيبات الأمل ، موت الأحبة ، الغربة ، فقدان الأشياء التي تعودت عليها ، الحنين إلى أيام وأشخاص لن يعودوا ... كل هذه الاشياء مرعبة ومخيفة ..

كانت أمي تحذرني دوما من الحديث مع الأشخاص الغرباء لكي لا يسرقوني، لا تدري أمي أنني كبرت و تحدثت مع ذلك الغريب و سرقني، سرقني كلي، قلبي و روحي و عقلي.. أخذني يا أمي ، وسيم أخذني إليه وإلى الأبد ، ذلك الغريب الذي سرق نبض قلبي بكلمة منه

أصبح جزءا من الروح، ذلك البعيد أذاب روحي فيه بلمسة من يديه ، ذلك الأحد سرق دقات قلبي بنظرة من عينيه ، غرقت وانتهيت يا أمي ..

هذا ما كتبته صوفيا في مفكرتها الصغيرة عن وسيم ...

"وأول مراحل الغرق أن تموت كل أشيائك الجميلة

أن يصبح كل شيء باهتا وحزينا في عينك.

أنك تريد ذلك الشخص جدا و لكنه زرع ألاف المسافات بينكما..
أن تبكي ليلا دون أن يراك أحد و تبتسم مع الجميع في الصباح كأنّك أسعد أهل الأرض.
عندما تبحث عن شخص للتحدث إليه فلا تجد أحدا..
عندما تملك الكثير العالقة في ذهنك و تريد قولها لاحدهم فلا تجده أمامك ، أن تكون وحيدا حد الألم "

هذا ما قالته صوفيا ..

" خيبات الأمل ، انكسار القلوب، الألم، الابتسامات التي تخفي وراءها ألف دمعة، الضحكة العالية التي تخفي جرح قلب لا يبرأ ،صرخات الافئدة التي لا يسمعها أحد، لا أحد يشعر.."

"الخذلان .. صعب جدا هو هذا الشعور، هو أن تثق بشخص وتتحدى الجميع من أجله ليجرحك هذا الشخص قبل الجميع، هو أن تختار شخصا دون الجميع لأنك ترى دنياك فيه ليتركك وحيدا لتفقد الدنيا بعده، هو أن تحاول الاقتراب من أحدهم فيبعدك ، وهو أن يحزنك الشخص الذي تبذل كل طاقتك لكي تفرحه، هو أن تنظر في عينيه لتقول أرجوك لا تخذلني، ليفعل هو عند أول فرصة "

***

فور انتهائها من القراءة فكرت في البحث عن هذا الشخص الذي أحبته خالتها وعن مكانه الآن، فهي سألت خالتها كثيرا من قبل عن السبب الذي جعلها تبقى وحيدة هكذا ولم تجبها، تريد أن تتعرف على صديق والدها وعن كل الاشخاص الذين كانوا مقربين منه ومن أمها غير عائلتيهما، لم تكن تريد أن تخبر أحدا أنها ستبحث عن صديق والدها ...

حملت كمبيوترها وبحثت على موقع فيس بوك عن حساب وسيم صديق أبيها فوجدته بعد البحث وجدت مقر سكناه في باريس ووجدت بعض صوره في قسنطينة، بعد بحث مطول وجدت أنّه يسافر بين الجزائر وفرنسا، أرسلت له طلب صداقة وأرسلت رسالة قصيرة ليرد عليها : " أنا حلم، صحفية مبتدئة، أود كتابة مقال عن المغتربين الجزائريين في الخارج، أتمنى أن تساعدني "

على غير المتوقع لم يتأخر في الاجابة " أهلا ابنتي ، يسعدني أن أساعدك، أنا هنا في أي شيء تحتاجينه "

طلبت منه أن تلتقيه و حددوا موعدا للقاء في قسنطينة بعد عدة أيام ...

جهزت نفسها و أخبرت خالتها و جدتها أن ستلتقي بأحد ما من أجل مقالة ستكتبها ولكن دون ذكر أي تفاصيل عن اللقاء وعن الشخص الذي ستلتقي به.

كانت تريد أن تبدوا بمظهر عادي، ارتدت بنطلونها الأسود وسترتها الزرقاء الطويلة مع خمارها ذو اللون الازرق الغامق ، تعشق كثيرا الحجاب الذي ترتديه فهي منذ طفولتها معجبة بلباس جدتها الأمازيغي التقليدي "جبة قبايل " وبحجاب خالتها، تحب دوما اللحظة التي تحمل الخمار لتلفه على رأسها تشعر أنه يعبر عن هويتها وعن دينها و ثقافتها، بعكس الذين يفكرون أن التحضر في نزعه، فهي التي تعلمت أن الحجاب جزء من هويتها وتعلمت في نفس الوقت احترام الجميع، بمختلف أفكارهم وعقائدهم ومذاهبهم .

خرجت من البيت وذهبت إلى العنوان المطلوب الذي هو بيت صديق أبيها، بيت جميل جدا ذو طابقين، يبدو لأسرة غنية نوعا ما، مصبوغ بلون أبيض، يحيط به حديقة صغيرة فيها بعض الأزهار، كانت متشوقة جدا للقاء الشخص الذي كان معه وكان يسانده دوما ومقربا منه ، طرقت الباب ببطء فجاء شخص ليفتح الباب، شاب عشريني وسيم جدا، يشبه صديق والدها الذي رأته في الصور، طويل، أشقر، عيناه زرقاواتان، لفت انتباهها من النظرة الاولى تلبكت عندما التقته ..

قال: " أهلا و سهلا "

-أهلا بك ، أنا صحفية اتفقت مع السيد وسيم أن ألتقيه الآن .

-نعم أدري، هو هنا، تفضلي بالدخول .

-شكرا .

دخلنا إلى صالون البيت كان العم وسيم هناك ألقيت عليه التحية وقال لي تفضل بالجلوس، خرج الشاب.

-مرحبا

-أهلا و سهلا بك يا ابنتي.

-أخبرتك أنني صحفية و أنني أريد أقوم بلقاء صحفي مع المغتربين الجزائريين، ولكنني استغربت كثيرا سرعة ردك على الرسائل و هذا الموعد السريع..

-أعلم ذلك، عندما رأيت لقبك تذكرت أحدا ما، كان صديقي..

-يزن ؟

-نعم ، والدك ..

-كيف عرفت ؟

- أنا أعلم ذلك، لقد كنت أتابع أخبارهم باستمرار وكنت أسأل جدتك عن أحوالك، عندما وصلتني رسالتك سعدت كثيرا و عرفت أنك قرأت رسائل أمك لك..

-تعرف موضوع الرسائل أيضا ؟

-نعم، أعلم، عندما أخبرتني أم يزن عن الرسائل كنت واثقا أن أمك ستذكر قصتي فيها وكنت متأكدا أنك ستبحثين عني...

-لا أصدق، لم أكن أتوقع هذا..

- والدك كان مثل أخي و أمك أيضا، كانا عزيزين جدا على قلبي، لم أستطع أن أجيء إلى منزل خالتك و جدتك لأنّني لم استطع مواجهة صوفيا.. أعلم أنك تعرفين كل القصة لهذا أنت هنا..

بينما نحن نتحدث دخل الشاب الذي التقيته على الباب ، أحضر لنا عصيرا .. يبدو خجولا ..

-أهلا و سهلا بك .

-أنا لم أعرفك على أدم، ابني.

-ابنك ؟

-نعم إنه ابني آدم، يكبرك بسنتين.

قال آدم:

-تشرفت بمعرفتك يا حلم، تحدث لي أبي عنك وعن والديك كثيرا... أنا سعيد جدا لأنّني التقيتك ..

-أنا أيضا..

التقت عينانا وشعرت بخجل ، احمر خداي، قلبي ينبض بسرعة، ما أجمل حديث العيون...

قال العم وسيم:

-ابنتي، سأطلب منك شيئا ما، لا تخبري خالتك بشأن لقاءنا، لا أريدها أن تنزعج مني أكثر..

-نعم، أكيد، لن أخبرها..

اخبرته بعدها أنه يجب أن أذهب، أصر على بالبقاء أكثر ولكنني كنت خجولة ولم أستطع أن أبقى .. وعدتهما بلقاءات أخرى، ودعتهما وذهبت ..

بقيت في اتصال مع العم وسيم ومع أدم أيضا، أصبحنا أنا وآدم متقاربين جدا و بدأت قصة حب جميلة بيننا...

***

"فراق"

ديهيا 2012

أنهيت عامي الخامس وتخرجت هذا العام من الجامعة
وبدأت في فترة التدريب في المستشفى..

أحيانا يكون كل شيء جميلا ومثاليا و في لحظة ما
يبدأ القدر في التخريب وصنع المفاجآت ... كان كل شيء بيننا أنا ويزن
جميلا و كانت حياتنا عادية و روتينية، زار يزن أهله في غزة في هذا
الصيف كما يفعل كل عام وكان الوضع عاديا هناك وحياتهم جميلة وهادئة،
بعد عودته أصبح قلقا و يبدو متوترا وشاردا أغلب الوقت...فقد عمله في
الجريدة التي عمل فيها لسنتين لأنه لم يستطع التوفيق بين دراسته والعمل،
رسالة الدكتوراه أخذت منه الكثير من الوقت..

قال و نبرة القلق بادية عليه:

-حبيبتي الحلوة سأخبرك بشيء ما ولكن عديني أن لا
تخافي ولا تحزني بعدما ما سأقوله لك .

-أخبرني وبعدها سأقرر إن كنت سأعارض أم لا .

-لا يمكنني أن أخبرك إلا إن وعدتني أن تقفي معي في
كل خطوة.

-حسنا ، أعدك .

-كنت تسألينني عن السبب الذي جعلني أقول لك
باستمرار لا تتعلقي بي كثيرا، وتوقعي رحيلي و كنت دوما تغضبين مني عندما أقول لك ذلك.

-نعم .

-سأخبرك بالسبب حسنا ؟

-نعم .

-فقدت عملي في الجريدة ، لا أعلم من أين سأتدبر
مصاريفي بعد الآن في الجزائر، سأصرف ما إدخرته ولا أدري ما سأفعله بعدها، و كما تعلمين أنا ولدت في غزة و أنا الذكر الوحيد لوالدي، و لهذا السبب كان كل مسعى والدي أن أكون رجلا بحق، أن أكون فخرا له دوما ولذا فعند بلوغي الخامسة عشر من عمري انضممت إلى صفوف المجاهدين وحفظت القرآن وأقسمت أنني دوما مستعد لاستجابة نداء الوطن
كنت خائفا جدا عندما أحببتك، خفت أكثر عندما بدأت تتعلقين بي، أنت تخاطرين بالكثير لأنك تحبين رجلا أعطى روحه منذ ويدخل معركة لا يدري إن كان سيخرج منها حيا أم لا..

-وما المشكلة هنا ؟

-ماذا لو رحلت و تركتك تنتظرين و ماذا لو مت وتركتك وحيدة وحزينة.

-أنا معك دوما في كل خطوة تخطوها، أبحث عن عمل آخر ربما ستجد، وبشأن الوطن أنا معك و فخورة بك ومقتنعة مثلك أن الوطن أهم من كل شيء..

-أخاف على قلبك..

-أتدري ؟

-نعم ...

-أنا أحبك كثيرا، والآن أنا أحترمك، و أفتخر بك أكثر..

-ولكن ..

-لا يوجد لكن، سأتمسك بك، وأنا معك في كل خطوة.

-أنا أشكر الله دوما لأنّك جزء من حياتي..

***

أصبح يزن يائسا جدا في هذه الفترة ، فقدانه للعمل جعله يشعر باليأس ...

-أريدك أن تعديني بشيء.

-مم ما هو ؟

-تعلمين أن أكثر شيء أحبه فيك هو تفاؤلك، أريدك أن تعديني أن تبقي متفائلة ومبتسمة دوما مهما حدث، أريد أن تبقي دوما بهذه الروح التي تحب الحياة دوما هكذا...

- أستطيع أن أعدك بهذا ولكن بشرط..

-ما هو شرطك ؟

-أريدك ان تعدني بأنك ستبقى بجانبي دوما ... هذا الشيء الوحيد الذي يجعلني أحب الحياة ..

-و لكن .. لا أحد يدري ما يخبأه له القدر ولا يمكنني أن أعدك بشيء كهذا ..

-إذا تريد أن تقول أنك ستتركني في يوم ما ؟

-لا أقول هذا و تعلمين جيدا أن هذا آخر شيء أريده أن يحدث ولكن وعد البقاء غير مضمون.. هذا متعلق بالظروف والقدر ..

-الظروف ؟ ما هو هذا الظرف الذي يجعلك تتخلى عني؟

-لا أدري.. أنا أتكلم بصفة عامة، ولكن هذه هي الحياة ، لا ندري ما يخبأه لنا الغد.

-بما أنك لا تريد أن تعدني أنك ستبقى معي، لا يمكنني أن أعدك أن أحب الحياة دوما، لا حياة لي بعدك..

-أخاف من تعلقك هذا ..

-وأخاف من حديثك هذا ..

-ولكنني يمكنني أن أعدك بشيء..

-بما ؟

-أعدك أنني سأحبك دوما، و ستبقين أنت ملكة قلبي مهما حدث.

-وأنا سأعدك أنني لن أتركك مهما حدث..

***

"عندما تدق الحرب طبولها ، عندما تصبح زقزقة العصافير حزينة، عندما تبكي السماء دموعا، وترتدي السواد لونا لحدادها، عندما يبدأ دوي الرصاص في بلوغ أذاننا، عندما تبدأ الصواريخ في تفجير كل مكان و عندما يتحول الأطفال إلى أشلاء، في الوقت الذي تصبح الفتيات الجميلات بأثوابهن الزهرية المزركشة والمزينة بالزهور عصافير في الجنة، و تصبح دماهم وألعابهم الصغيرة مقسمة إلى أطراف، عندما ينام الأولاد الصغار باكرا على أمل أن يستيقظوا صباحا ليذهبوا إلى مدارسهم وهم قلقون على اختبار الغد لينامو ولا يستيقظوا أبدا لا في صباح الغد ولا في أي صباح ... عندما تنام الأم وهي مبتسمة بعدما قبلت أولادها الصغار و تضع الثوب الذي تخيطه لابنتها القادمة قريبا وتلمس بطنها بلطف وتهمس "كل شيء سيكون جميلا يا ابنتي " و تستيقظ على صاروخ يفجر الجميع لتتلاشى كل الأحلام، وعندما يذهب الزوج إلى العمل صباحا ولا يعلم إن كان سيعود في المساء ليرى ابتسامة أولاده عند عودته أو سيعود في كفن ... اعلمي أنك تعيشين في غزة، وسط الحرب، وأصوات الصواريخ والقصف جزء من يومياتك.. كل مدن العالم تمنح أطفالها الألعاب والقصص الجميلة إلا غزة فأطفالها يولدون رجالا، أطفال غزة على غير كل أطفال العالم لا تستهويهم ألعاب سبيدرمان وباتمان ورجال القوة، الطفل هنا يرى والده أقوى من كل رجال الأفلام في الوقت الذي يلعب به الأطفال الأخرون بالكرات الملونة أطفال غزة يلعبون بالبندقيات البلاستيكية لتتحول إلى بندقيات حقيقة عندما يكبرون، حرموا طفولتهم و براءتهم سلبت منهم أحلامهم وهم في المهد ،حصار مستمر عدو يحتل الأراضي، يرمل النساء ، ييتم الصغار،يقتل أحلامهم، ويغتال براءة الصغار.،

ألا يكفي ظلما بهؤلاء ؟ ألا يستحقون العيش بسلام ؟ يتحدث العالم و المنظمات الانسانية دوما عن حقوق الانسان ، أين حق هؤلاء ؟ في العيش الكريم، في اللعب، في احتضان أبائهم كل صباح، في تقبيل أمهاتهم قبل النوم ، أين حقهم في النوم بسلام دون صوت الصواريخ، ألا يكفي ظلما في هذا العالم، أين الانسانية؟"

-وجدت هذا مكتوبا على حائطك في فيسبوك فاتصلت بك.

-كيف حالك؟

-بخير وأنت؟

-بخير، قرأت توا ما نشرته على فيسبوك أحزنني كثيرا ما كتبته...

-مم لقد تذكرت الكثير من الأشياء ، وعبرت قليلا عما خطر في بالي، أخبرتك من قبل أن الحياة هناك ليست سهلة وأن طفولتي لم تكن عادية وأنني عشت دوما في جو غير آمن، كنا ننام ليلا ولا ندري هل نستيقظ في الصباح أم لا ... كنت أخاف دوما أن أعود إلى البيت ولا أجده كما تركته، أخاف دوما أن أجد بيتنا مدمرا وأمي تحولت إلى أشلاء، وهذا الشعور كان يشعر به كل شخص هناك، حتى لو كنا نتابع حياتنا الطبيعية و لكننا دوما كنا مسكونين بالرعب...

-أسأل الله أن يفرج كربكم و أن يبعد كل سوء عن غزة وأهلها .

-آمين .. هناك أحاديث و تنبؤات تقول أن هناك حربا قادمة..

-ربي يستر، ربي يبعد علينا هاد الشيء، ربي يحمي غزة وأهلها..

-آمين . نحن متعودون على ذلك لذا لا تقلقي كثيرا حسنا ؟

-كيف لا أقلق و أهلك هناك و كل الناس الذين تحبهم هناك.

-هم متعودون لذا لا تقلقي كثيرا وكل شيء مقدر، أنت تؤمنين بالقدر لذا لا تفكري كثيرا ..

-حسنا .

-هيا إذا يا حبيبتي الحلوة أخبريني ماذا فعلت اليوم؟

-لا شيء مهم، ذهبت إلى المستشفى للعمل، وقرأت كتابا.

-ممم حبيبتي التي تلتهم الكتب .

-ههه نعم ،. أنت تعلم جيدا أني أحب الكتب كثيرا لذا عندما نتزوج أريد مهري مجموعة من الكتب .

-ههه مجنونة , حسنا سأشتري لك كتبا بقدر ما تشائين وسيكون في بيتنا أكبر مكتبة.

حسنا هكذا سأتفق معك جيدا..

-يكفي أن تطلب أميرتي الحلوة و كل شيء سيكون أمامها، كل شيء فداء لابتسامتك الحلوة

كن هنا معي دوما و سأبتسم دون توقف حتى تمل مني..

-وهل يستطيع أحد أن يمل من ابتسامتك يكفي أن تضحكي لتشرق شمس الصباح..

-كفاك غزلا الآن وهيا إلى النوم، تصبح على خير..

-سنلتقى غدا تصبحين على خير يا أجمل حبيبة في العالم ..

-تصبح على خير يا أجمل صدف الكون..

أغلقت الخط و بدأت أفكر فيما قلته عن الحرب لا أعتقد أنني أستطيع أن أتحمل أن تغيب عني يوما واحدا فكيف أن تغيبك الحرب عني لن أتركك تذهب إلى غزة أبدا لا يمكنني أن أضحي بك لا يمكن أبدا .. أسال الله لك السلامة و لكل أهلك..

***

أتذكر جيدا عام 2009 عندما اشتد القصف على غزة
كيف كان حال الجزائريين، كان الجميع في حداد ، كل الناس يشاهدون الأخبار عن كثب والكل حزينون و متأثرون ويدعوا أن يحمي الله أهلنا في غزة، كان الجميع يرتدي الكوفيات الفلسطينية للتضامن مع فلسطين، تجد في كل مكان شعارات " كلنا فلسطين " ، "كلنا مع غزة " " كلنا مقاومة " ، لا يخلو حديث الكبار أو الصغار من التحسر عما يحدث من قتل للغزاويين جراء القصف المستمر وفي كل مباراة للجزائر تسمع شعار " فلسطين الشهداء ، فلسطين الشهداء ، كلنا فلسطين ، تحيا فلسطين "، حتى أطفال المدارس يدعون لغزة ويحفظون الشعار الذي يردده كل الجزائريين "نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة "

***

و بعد اسبوع بدأت الحرب في غزة وبالضبط صباح الثاني عشر من شهر نوفمبر 2012 ، أصبحت أتابع الاخبار طوال الوقت، يزن ليس بوضع جيد، لم يعد يتصل أبدا وعندما اتصل به ينهي الاتصال بسرعة ، أحاول أن أكون قريبة منه في مثل هذا الوضع ولكنه يحاول الابتعاد والبقاء وحيدا، كل عائلته موجودة في غزة، و القصف متواصل منذ الصباح ..

***

ستمر عليك لحظات الألم و الخوف والارتباك
والضياع، لا تدري ماذا تفعل بك الحياة و لم تفعل بك ذلك لم اختارتك دون الجميع لتربكك و تدخلك في متاهات لا حصر لها، حزن عميق ، ألم وحسرة ..

حزنت كثيرا بعدما رأيته في الأخبار من قصف..

وصلت إلى الجامعة حيث كنت قد اتفقت مع يزن أن نلتقي يومها بعد إصراره على اللقاء بي ، كان يوم عطلتي من العمل في المستشفى ، كانت الساعة تشير إلى العاشرة ، وجدت يزن مصعب جالسين معا، ذهبت إليهما القيت التحية و سألت عن حالهما استأذن مصعب بالذهاب و بقيت مع يزن كان يبدو تائها ومتوترا ... يبدو مرهقا جدا لابد أنه لم ينم طوال الليل...

-ما بك؟ لا تبدو بخير.. أخبرتني أنك تريد أن تحادثني في موضوع مهم أمس ما هو ؟

-نعم، هذا الموضوع يشغل بالي منذ زمن وكنت أود فتح الموضوع معك وهذا هو الوقت المناسب.

-أقلقني هذا تحدث بسرعة..

-أود الحديث بشأن...

صمت قليلا كان متوترا احمر وجهه استجمع نفسا وقال:

-أود الحديث بشأن علاقتنا..

-علاقتنا ؟ ما بها؟

-أريد أن تنتهي..

أطلقت ضحكة و كأنني لم أصدق.

-أنت تمزح؟ أليس كذلك ؟

-لا أمزح...

ممم ليس يوما للكذب العالمي لتمزح هذا المزاح، هل هذا مقلب ؟

-توقفي عن الإنكار أنا أتحدث بجدية و لست أمزح، تغيرت تعابير وجهه نحو الجدية والصرامة، عرفت لحظتها أنه جدي فيما يقوله وكان يبدو قاسيا جدا أنا أرى وجهه هكذا أول مرة، ربما بدا لي وجهه الآخر الذي لم أعرفه أبدا، أو بدت لي حقيقته..

-وهل يمكنني أن أعرف السبب ؟

-لا يمكن

-أظن أنه يحق لي ذلك، أليس كذلك ؟ ولا يمكن دون سبب...

حاول تحاشي النظر إلى وجهي وإلى عيناي كما كان معتادا .

-لا أريد، هذا فقط، هذا هو السبب..

كان قاسيا جدا لحظتها ، شعرت بغصة في حنجرتي ، كانت الدموع تنحبس في عيناي و أمسكتها بقوة ، يداي و قدماي تتجفان، حاولت أن أستجمع النفس بقوة وبلعت تلك الغصة بداخلي وقلت حسنا...شعرت بحزن عميق داخلي...

-ألم تعد تحبني ؟

-أنا سأذهب ...

و ذهب .. تتبعته بعيناي إلى أن اختفى ، تركني مصدومة ، بقلب قد جرح للتو و بالكثير من علامات الاستفهام حولي ، ما هو السبب ؟ هل أخطأت في شيء ؟ هل كان وهما ؟ لا أدري؟ الكثير والكثير من علامات الاستفهام تدور في مخيلتي ..

***

عدت إلى البيت فورا حاولت طول الطريق أن أمسك دموعي ،شعرت بالرجفة، لا أصدق كيف تماسكت طوال الطريق دون أن أبكي، عندما وصلت إلى البيت صعدت فورا إلى غرفتي ، أغلقت الباب احتضنت وسادتي وبدأت في البكاء، لم أكن أصدق ما حدث، شعرت بالانهيار والحزن، لم أتوقع أن يأتي هذا اليوم الذي يتركني فيه ، كنت أعتقد دوما أن قصة حبنا مثالية وأننا مختلفون عن الجميع وأنا حبنا لا مثيل له ولكن أن أترك بهذه البساطة أجده شيئا غير معقول، انهارت أحلامي فجأة دون سابق إنذار، هل كانت وعودنا هشة لهذه الدرجة ؟ لا أدري، ولم أعد أفهم، أشعرت بالصدمة ، لم أستطع التحكم في دموعي.

شعور سيء جدا أن يكون الشخص الذي يعني لك كل شيء قد تخلى عنك بهذه البساطة ، لا بد أن له أسبابا كبيرة ليفعل ذلك ، لا يمكن أن يحدث هذا دون سبب ...

***

يزن

لو خيروني بين الموت وبين ذلك الشعور كنت بالتأكيد سأختار الموت دون تفكير

كنت جالسا مع مصعب نتحدث و أخبرته أنه ليس بإمكاني الاستمرار في تعليق ديهيا بي أكثر من هذا ..

-أتعلم يا صديقي أحبها كثيرا و لا أتحمل رؤيتها تتألم و لو لثانية..

-أفهم شعورك و لكن أن تتركها الآن أفضل من تستمرا في التعلق وستتأذيان أنتما الاثنان في النهاية .

-أعلم أن ذلك صعب عليكما أنتما الاثنان و لكن الان أفضل من وقت لاحق..

-أصعب موقف في الحياة هو أن تجد أن سعادة الذين نحبهم في بعدهم عنا..

-أفهمك ..

-أن تختار الابتعاد عن من تحبه لكي لا تؤذيه أشبه بأن تنقذه من النار وتحترق أنت ، هو ستنطفئ ناره بعد مدة ولكن نارك تستمر في الحرق إلى الأبد ..روحي تحترق من الداخل ..

-كن قويا..

لمحتها وقتها قادمة من بعيد، حبيبتي، أميرتي،
صغيرتي المدللة، وجع قلبي، مصيبتي الحلوة.. لم أستطع أن أتخيل نفسي أجرح قلبا مرهفا وطاهرا كقلبها، لا أستطيع تصور الدمع في عينيها، أشعر أنني أسوء رجل في العالم لأنني سأجرح قلبا بريئا يحبني ...

ألقت علينا التحية و ذهب مصعب ليتركنا بمفردنا لا
أدري كيف سأقول ما سأقوله وكيف سأجرح أحب إنسانة إلى قلبي ، هي التي لو طلبت روحي كنت لأعطيها .. ولكن لا يمكنني أن أجعلها تنتظرني كل يوم وأن اجعلها تعيش تحت القصف والخوف وانتظار الموت، هي تستحق حياة أفضل وأجمل بعيدا عن الحرب والدم والموت، كم كان العالم سيكون جميلا لو لم تكن هناك حروب ولكن لسنا نحن من يختار أقدارنا، كانت جميلة كعادتها ملامحها بريئة، نقية و طاهرة عيناها كوكب آخر .. لا أستطيع أن أتخيل نفسي بدونها سيكون كل شيء في حياتي ناقصا بعدها ولن يكون لي أي امرأة بعدها هي كل نساء الكون في نظري..

-ما بك ؟ لا تبدو بخير، أخبرتني أنك تريد أن تحادثني في موضوع مهم أمس ما هو ؟

-نعم، هذا الموضوع يشغل بالي منذ زمن وكنت أود فتح الموضوع معك وهذا هو الوقت المناسب..

لا أدري كيف سأتحدث، قلبي يخفق بسرعة أتصور ردة فعلها، لا أدري أن كنت أستطيع فعل هذا اللهم امنحني القوة ..

-أقلقني هذا تحدث بسرعة..

-أود الحديث بشأن ... أود الحديث بشأن علاقتنا

-علاقتنا ؟ ما بها ؟

-أريد ان تنتهي ..

قالت :

-أنت تمزح؟ أليس كذلك ؟

لو انشقت الارض لحظتها كنت بالتأكيد سأدخل فيها ،
انكارها يقتلني ..

-لا أمزح..

-ممم ليس الفاتح من شهر أفريل لتقوم بمقلب ، هيااا
توقف عن مزحك الثقيل هذا، أنت ترعبني هههه . هل هذا مقلب ؟

-توقفي عن الإنكار أنا أتحدث بجدية ولست أمزح .. كنت قاسيا لحظتها استجمعت كل قواي لأبدو كذلك أريدها أن تكرهني لتنساني بسرعة

-وهل يمكنني أن أعرف السبب؟

-لا يمكن ..

-أظن أنه يحق لي ذلك، أليس كذلك ؟ ولا يمكن دون سبب...

-حاولت الهروب بنظري عنها لا يمكنني النظر إلى وجهها أريد أن أخبرها أنني أحبها جدا وأنه لا يمكنني بدونها أريدها أن تعلم أنني أحبها جدا...

-لا أريد، هذا فقط، هذا هو السبب..

-حسنا ..

عندما قالت ذلك شعرت أنها حزينة و منهارة أردت أن أحتضنها بشدة و أن أخبرها أنها حبيبتي التي لا أتصور الحياة بدونها، أردت أن أضمها إلى صدري بقوة و أن أخبرها أنني هنا معها وسأبقى معها مهما حدث، و أن هذه المسافة بيننا تقتلني...

-ألم تعد تحبني؟ نزل هذا السؤال علي كالصاعقة، أردت أن أجيبها لأخبرها وهل تشكين في ذلك يا صغيرتي؟ أحبك جدا وجدا وجدا، أنت نفسي، أنت مقلتاي، كل حياتي أنت..

فضلت الانسحاب وخرجت بسرعة لأنني لم أستطع أن أحبس دمعة كانت في عيني ، أووه لا يمكن يا رجل أنت تبكي ؟ هذا ما قلته لنفسي ، لم أبك منذ زمن بعيد

ذهبت إلى البيت حزمت حقائبي وودعت صديقي في الإقامة مصعب و رحلت...

الكثير من الذكريات أخذتها في ذاكرتي عن الجزائر ،
لا أدري إن كنت سأعود مرة اخرى ، أحببت كثيرا هذا البلد وتعلقت به كثيرا ..

الجزائر كانت دوما تحتضن الشعب الفلسطيني
وتستقبل الفلسطينيين كأنهم في بلدهم ، لا يشعر الفلسطيني أبدا بالغربة هنا لأنه يستقبل استقبالا لا مثيل له و يعامل معاملة أحسن من الجزائري، لم اشعر يوما بالغربة هنا، شعرت دوما بأنني جزء من هذا الشعب، هنا يكفي أن تقول أنك فلسطيني لكي تحتضن بقوة ويناديك الجميع خويا ..

ركبت الطائرة المتوجهة إلى القاهرة وإذ بدموعي
تنهمر دون توقف .. أفترق عن بلد بقيت فيه خمس سنوات وفي نفس اليوم
الذي انفصلت فيه عن حب حياتي...

يقال أن الرجل لا يبكي، أنا لا أصدق ذلك، يبكي
الرجل عندما يفقد أعز ما يملك ، عندما يشعر أن الحياة تعطيه عكس ما
يتوقع ، عندما يشعر أنه فقد و سيفقد الكثير و أن الحياة ستواصل لعبة الفقد
و الألم معه باستمرار، عندما يريد أن يمسك باليد التي تنقذه وتعيده إلى
الحياة ولكنه لا يستطيع ، لأنه يعلم أن الحياة ستأخذ منه هذه اليد وستتركه
يتخبط وحيدا ليغرق في النهاية دون أن ينقذه أحد .. سيبكي عندما تخالف
الحياة توقعاته ..

عندما يكون الشاب متعلما و مثقفا ولكنه يعيش في دولة
لا تقدر لا علمه و لا ثقافته، دولة تعمل ب "المعريفة" والمحسوبية ..
سيبكي

عندما يرى أصدقاءه يرحلون في قوارب الموت نحو
المجهول.. ليتركوا أكباد الأمهات تحترق وقلوب الآباء تتوجع.. سيبكي

كلما شاهدت الاخبار انحبست دمعة في حنجرتي
فلسطين محتلة ، سوريا تحت القصف، العراق جريح، مصر تحت
الاستبداد،الجزائر التي ينخر الفساد عظامها من كل الجوانب، اليمن السعيد
أصبح تعيسا ..

لا أدري ماذا نفعل من أجل أوطاننا ؟

بكيت بحرقة ذلك اليوم كما لم أبك من قبل ، رحيل
وسيم بتلك الطريقة وتخليه عن كل شيء، صوفيا التي بقيت وحيدة بعده،
رحيلي الان تركي لديهيا دون أن أبرر لها... أهلي الذين يموتون كل يوم
في القصف، وطني محتل، الجزائر التي تسير نحو الهاوية ، أشعر أن كل
شيء يضيع ...

رفعت رأسي إلى السماء ودعوت "اللهم ارفع عنا هذا الظلم و اهدنا إلى الطريق المستقيم "

***

أن تحب أحدهم و يبادلك الحب يعني أن تجد فيه روحك ، أن تكون عفويا بلا حدود عندما تكون معه ، أن لا تجد نفسك مضطرا لأن تكون أحدا غيرك، أن لا تكلف نفسك بشيء ولا تتظاهر بشيء لأنك تعلم أنّ هذا الشخص يحبك كما أنت بأخطائك و بصفاتك الجميلة والقبيحة، يحبك كما أنت دون شروط ، دون تكاليف، دون حدود أيضا، أن تعرف أنّ هذا الشخص لا يكون بخير إلا إذا كنت أنت كذلك وأن تعلم جيدا أن هذا الشخص لا يستطيع أن ينام ليلا دون أن يطمئن انك بخير، أن تكون واثقا دوما أن هذا الشخص يحبك دوما حتى لو فرقت بينكما آلاف المسافات، أن تجد أن هذا الشخص هو ليس نصف الاخر بل هو أنت في مكان آخر، هو كلك الآخر، حبنا أنا و يزن كان هكذا، معه أجد نفسي أنا، أتصرف بعفوية وأتحدث بعفوية، لا يكتمل يومي بدونه، ولا يبدأ صباحي إن لم يكن هو فيه، الحياة بالنسبة لي قبله كانت لا شيء وبعده ستكون لا شيء ، قال لي يوما أن الله خلق حواء لتكمل آدم وخلقني لأكمله، حياتي كانت ستكون دوما ناقصة لو لم يكن هو موجودا فيها، لا أستطيع تخيل حياتي بعد الآن في غيابه ...

بقيت يومان كاملان وأنا طريحة الفراش، لا أخرج من البيت، ولا أذهب إلى المستشفى، حاولت أمي وأختي معي كثيرا أن أخرج من غرفتي ولكنني لم أفعل، إلّا أن تحدث معي أبي و هدئني قليلا ولكنني عدت إلى وضعي، أبكي كثيرا، أنام اكثر من الحد اللازم، أشرب كميات غير محدودة من

القهوة، أحاول أن اقرأ كتابا وأغوص في مخيلتي وأتيه لأغلق الكتاب، أتذكر أيامنا، ضحكاتنا، أحاديثنا التي لا تنتهي ، عروق يديه، بحة صوته، لمعة عينيه، عطر رجولته ، اهتمامه ، احتواءه لي ،شعوري أنني فوق غيمة ونسياني العالم عندما كنت معه .. كل هذا انتهى بهذه البساطة ؟ لا أصدق ! كنت أطير عاليا في السماء وفجأة وقعت على الأرض وارتطمت بها

.. بقوة..أنا غرقت واختنقت

غيرت ملابسي وحملت حقيبتي وخرجت من البيت، لا يمكنني أن أواصل حياتي بهذه الطريقة

***

الكثير الكثير من الناس

الكثير من الوجوه الضاحكة، المبتسمة، العاشقة، المتأملة ..

فتيات يأكلن وجبتهن و يضحكن بسعادة لأنهن يتذوقن طعم الصداقة

امرأة جميلة مع زوجها وابنتها يبتسمون وينظرون إليها كأنها أجمل ما في العالم وهي سعيدة لأن والديها معها

الكثير من الاشخاص..

حبيبين في الطاولة التي أمامي يتحدثان كثيرا وكل واحد فيهما يتأمل عيني الأخر بفرح وبحب، عشاق كثيرون، أحد يمسك بيد حبيبته، أخر يتأمل عيونها، فتاة تتغزل بحبيبها...

في كل هؤلاء شخص واحد يجلس على الطاولة وحيدا، يأكل بصمت، يتأمل وجوه الاخرين، سعادتهم ، يخفي دمعة خفية في عينيه ، يبتلع الغصة ، يحاول أن يأكل هذا السندويتش الذي لا طعم له، لذة الطعام لا تكون إلا اذا اشتركته مع أشخاص تحبهم .. يترك الطاولة و يخرج بهدوء، لاحظ الكثير أنه وحيد و تائه، أعتقد أنهم

يتساءلون ألا يوجد شخص في العالم يكون معها ؟ لم هي وحيدة هكذا؟ كان ذلك الشخص هو أنا

أين أنت يا يزن ؟ لم تركتني هكذا؟ هل أستحق هذا؟..

فقدت ابتسامتي منذ رحيلك ، فقدت كل الاشياء الجميلة في حياتي طعمها لأنني لم أعد أشاركها معك ، لم أعد اضحك كثيرا كما قبل و أصبحت ضحكاتي مزيفة .. لا شيء جميل بعد أن رحلت أنت، أنت كل أشيائي الجميلة، في غيابك فقدت طعم الحياة يا كل حياتي، أسئلة عالقة في ذهني؟ لم رحلت ؟ لم تركتني بهذه الطريقة؟ ألم تعدني أنك لن تفلت يدي أبدا ؟ لقد أفلتها.. ما هو السبب العظيم الذي يجعلك تتركني هكذا... أشعر بالضياع .

***

لست بخير أبدا ..القصف متواصل على غزة منذ أربعة أيام، يزن تركني ولم أعلم مأأخباره ، عائلته في غزة ولا شيء جديد ...

كتبت رسالة ليزن وكنت أريد إرسالها ولكنني قاومت نفسي ولم أرسلها :

" اشتقت إليك .. اشتقت إليك كثيرا ..لا أجد كلمات تعبر عن حجم الشوق الذي بي، أريدك أن تعود إلي.. أن أبقى إلى جانبك ولا نفترق أبد.. أريد أن يتوقف الزمن عند تلك اللحظة التي سأكون فيها معك، أريد عودة الزمن إلى الوراء وتوقفه قبل قولك لي وداعا..

أريد أن أشاركك كل شيء ، ابتسامتي ،حزني ، سعادتي، دمعتي، جرحي ،نبض قلبي ، مرضي، فرحي، كل شيء ..."

***

لم أستطع الانتظار أكثر اتصلت بمصعب ، أخبرته
أنني لست بخير وأنني أريد الاطمئنان على يزن وأنني أريد معرفة سبب
تركه لي، بعد اصراري الكبير أخبرني مصعب أن يزن تركني لأنه ذاهب
لينضم إلى صفوف المجاهدين في غزة وأنه لم يخبرني لأنه يعلم أنني
سأحزن كثيرا وسأطلب منه القدوم معه إلى غزة وهو لا يستطيع أن
يأخذني إلى الحرب بيديه، " خاف يزن عليك كثيرا ، لم يستطع أن يأخذك
معه إلى عالم الخوف والقصف والموت، ولا يمكنك أن تعيشي طوال الوقت
في انتظاره وأنت لا تعلمين إن كان سيعود حيا أو لا .. هذا ما فكر به .. "

***

"عودة"

"الحياة إما أن تكون مغامرة جريئة أو لا شيء " هيلن كيلر

ديهيا

18 نوفمبر 2012

حاولت أن أهدأ و أن أتحدث مع يزن اتصلت كثيرا به
و هاتفه مغلق طوال الوقت ، شعرت بعدم جدوى بقائي هكذا دون فعل شيء ولكنني لم أعد أدري ماذا يجب علي أن أفعل، تذكرت الجمعية التي حدثتني عنها صديقتي وعن فكرتهم في تنظيم قافلة مساعدات إلى غزة،

تذكرت ما قرأته يوما ما " الحياة إما أن تكون مغامرة
جريئة أو لا شيء " تذكرت هذه العبارة وتوقفت عندها شعرت برعشة في جسدي، ربما حان وقت مغامرتي في هذه الحياة، إذا كنت تحب شيئا وبقوة عليك أن تقاوم من أجله، أليس كذلك ؟

سيبدو هذا القرار جنونيا لكل من يفكر به و لكنني
قررت أن أحمل حقائبي وأذهب إلى غزة ، لا يمكنني الانتظار أكثر، منذ حديثي مع مصعب وأنا اتصل بيزن وهو لا يرد ..

هاتفه مغلق طوال الوقت ، وغزة تحت القصف ، ربما
استشهد، لا يمكنني التفكير في هذا الاحتمال، سأجن إن حدث له مكروه، إذا كان يزن لا يمكنه المجيء إليّ فأنا بإمكاني الذهاب إليه ، لن افكر في شيء، رغم أن أغلب الغزاويون ولدوا ليموتوا شهداء و يزفوا إلى الجنة ، و لكن روح الانسان غالية ، أمهات الشهداء يزغردن عند استشهاد اولادهن ودمع الحزن في أعينهن ، يقسم قلوبهن إلى نصفين، نصف سعيد

لأن ابنها عريس زف نحو السماء، ارتقى شهيدا في سبيل الأرض والوطن، ونصف قلبها الآخر حزين لأن ابنها لم يعش شبابه ولن تراه مرة خرى، لن تحمل حفيدها في يدها ولن ترى ابنها عريسا ككل الشباب في عمره ..

ذهبت إلى الجمعية التي أخبرني عنها صديقتي من قبل، أخبرني من قبل أنهم يستعدون لتنظيم قافلة مساعدات لغزة وأنهم يحتاجون لأطباء نظرا لنقص الأطباء في غزة و طاقم الإسعاف هناك لم يستطع التكفل بكل الحالات، سيكون من الصعب أن نمر عبر معبر رفح الذي تغلقه السلطات المصرية، تعتبر غزة أكبر سجن في العالم، حاصرها اليهود من كل الجهات، يهود إسرائيليون و خائنون عرب، ولكن برأيي لا يوجد أناس أحرار كناس غزة، رغم الحصار و القصف والنار يقاومون، يقاومون قصف اليهود وصمت العرب، رجال تحت الارض بأنفاقهم غلبوا أقوى جيوش العالم، مقاومو غزة هم جيش الله، رغم قلة العدد و قلة الزاد وقلة السلاح ولكن أركعوا جيش المستدمر المتوحش، رغم الخوف الذي ينتابني عندما أتذكر أن يزن في صفوف المقاتلين وأنه من الممكن أن يستشهد في أي لحظة إلا أنني فخورة جدا به وعليك أن تكوني أنت أيضا فخورة بوالدك يا حلم، كان رجلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، شجاع ، يستطيع أن يمنح روحه في سبيل أرضه و وطنه، في غزة ترضع الأمهات أبنائهن الجهاد مع حليبهن، حب الوطن موجود في مورثات أبناءهن، هم القوم الذي قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان"....

فالمسجد الاقصى هو أول القبلتين وهو المسجد الذي
صعد به النبي في ليلة الإسراء والمعراج نحو السماء فقضية فلسطين ليست
قضية الفلسطينيين وحدهم و لكن قضية المسلمين، و قضية كل شخص
ينتمي إلى الإنسانية..

لم أخبر أحدا في البيت عن قراري لأنني أعلم أنهم
سيعارضون وسيعتبرونه قرارا متهورا ومجنونا ، حزمت حقائبي في
الصباح الباكر دون أن يشعروا بي وذهبت ..

***

وصلنا صباح 19 من نوفمبر إلى الحدود مع قافلة المساعدات
وجدنا صعوبة في المرور من معبر رفح الذي تغلقه السلطات
المصرية لتمنع الناس من الخروج أو الدخول من وإلى غزة ،
الغزاويين حوصروا مرتين حاصرهم الاحتلال من جهة و حاصرهم
إخوانهم من جهة أخرى، مصر التي كان يجب تحمي غزة لأصبحت
هي التي تحاصرها ، لا يؤلم أن يظلمك عدوك ولكن الظلم الحقيقي
والظلم الـأكبر هو الذي يأتي من إخوانك .. غزة الجريحة التي تركها
الجميع تواجه كل أنواع الظلم وحدها ، أهل الغزة الصابرون
والواقفون في المواجهة دوما دون أحد، لا يهزم جند معهم الله .. بعد
مرور المعبر بصعوبة توجهنا إلى المستشفى ،بيوت مدمرة على
الطريق، الكثير من الخراب، تشعر للوهلة الأولى أنك في مكان
مهجور، أصوات القصف، سيارات الإسعاف، الطريق خالية من
الناس ، الجميع في بيوتهم، أخبرتهم أني أدرس الطب وقد أتيت
للمساعدة وباشرت العمل ، الكثير من الجرحى ، أفراد فقدوا
اطرافهم، أطفال ينزفون، بكاء، صراخ، أمهات يطلبن النجدة، كانت
تلك أسوأ لحظات المعاناة التي رأيتها و مررت بها في حياتي،

شعرت بالدوار من تلك المشاهد ،أين الانسانية من هذا، أين الناس ؟ هل مات بقية العالم ليتركوا الناس يتعذبون بهذه الطريقة دون أن يتحرك أحد ؟ أين المنظمات الإنسانية التي تنادي بحقوق الإنسان طوال الوقت ؟ أم أن الإنسانية مقتصرة عليهم فقط وليست للجميع ؟ بكيت كثيرا عندما رأيت معاناة الناس هنا، حاولت استجماع شتات نفسي وبدأت في العمل..

صوت سيارة الاسعاف يرن في أذني، أصبح أكثر شيء أسمعه في هذه الفترة وأنا في المستشفى، أصوات القصف، الدم، الأدوية، الصراخ، البكاء، الوجع، منظر أناس فقدوا أطرافهم، صانع حلويات فقد يده في القصف ، سائق سيارة أجرة فقد رجليه، أم فقدت ابنها الصغير لأننا نستطع إنقاذ حياته بسبب نقص الأدوية هنا بعد إغلاق المعبر، أب فقد ابنه الوحيد وزوجته في نفس اللحظة ، صرخات الأمهات، دموع الآباء، جثث الشباب، بكاء الاطفال، أصبحت جزءا من حياتي في هذا المشفى ...

انتهت الحرب بعد يومين أي يوم 21 نوفمبر وخلفت وراءها أراملا و أيتاما، معطوبين وثكالى... و شهداء رحلوا إلى مكانهم في الجنة..

عند انتهاء الحرب بدأت في البحث عن يزن، سألت أحد العاملين في المستشفى عنه وعن عائلته أعطاني العنوان وذهبت الى بيته ، كنت خائفة جدا من الخطوة المجنونة التي قمت بها، طرقت الباب وفتحت لي امرأة كبيرة في السن، خمارها أبيض وترتدي ثوبا فلسطينيا تقليديا أسودا و مزركشا بالأحمر، عرفت أنها أم يزن، كانت أجمل من الصور، تحدثت معها من قبل في الهاتف عندما كنت خطيبة يزن ولكنها لم تعرفني، لأنها لا تتوقع مجيئي إلى هنا ، كنت أريد أن

أحتضنها وأخبرها أنني طوال الوقت كنت متشوقة لرؤيتها ولكنني خجلت ..

سألتها بخجل :

-خالتي السلام عليكم، هل هذا بيت يزن ؟

-وعليكم السلام و ورحمة الله و بركاته ، نعم هذا هو ، يزن موجود هنا ..

ونادته .. يزن هناك شابة تبحث عنك..

قال بغرابة: شابة؟

قلبي يخفق بشدة، شعرت بالرجفة والخجل والسعادة واختلطت كل المشاعر داخلي في تلك اللحظة..

جاء ودخلت أمه إلى البيت ، عندما رآني وقف مدهوشا في مكانه من المؤكد أنه لم يصدق للوهلة الاولى ، تأمل فيّ كثيرا وقال : أنت ؟ لا أصدق، هل ما أراه حقيقي ؟ هل أحلم ؟

قلت : نعم أنا ، لقد اتيت ..

-لا أصدق، أعلم أنك مجنونة ولكن ليس لهذا الحد..

-مجنونة، هذا صحيح و لكنني جنوني مختلف، أنا مجنونة بك ..

رأيت السعادة في وجهه ،لقد كان مدهوشا ومتفاجئا وغير مصدق..

-كيف أتيت ؟ ومتى؟ وكيف وجدت البيت ؟ الكثير الكثير من الاسئلة ، أنا حقا غير مصدق..

-اترك أسئلتك لوقت لاحق الآن أنا سأسأل..

-ماذا ستسألين ؟

-هل تقبل الزواج بي ؟

-مجنونة ؟ أنا من يسأل هذا السؤال وليس أنت، كنت أفكر في الاتصال بك بعد انتهاء الحرب ، كانت فترة صعبة وآسف لأنني تركتك في تلك الحالة ..

-اتركنا من هذا أنت سألت في المرة الاولى وهذا دوري أنا ، أريد جوابا الآن هل ستتركني لأنتظر ..

- حسنا ، أنا موافق...

-هههه أخذت ما أتيت من أجله ، سأذهب الآن ، لأعود في وقت لاحق ..

-إلى أين ؟

-إلى المستشفى .

-المستشفى ؟

-نعم، حكاية طويلة، نتحدث في وقت لاحق.

-سأوصلك و نتحدث على الطريق

-لا يمكن، سيراك الناس.

-وما همي ؟ ألست خطيبتي الآن ومن حقي أن آتي معك .

-حسنا .

تحدثنا على الطريق وأخبرته بكل شيء وعن كل التفاصيل، وأنني سأغادر غزة قريبا، لأن القافلة ستعود إلى الجزائر، أخبرني أنه سيلحق بي عند أول فرصة لإتمام خطط الزواج والزفاف وكل التفاصيل الأخرى و أخبرني أنه سيبقى في غزة لأن والده و والدته يحتاجانه ولا يستطيع تركهما، وأنه عليّ أن أحادث أهلي في هذا الموضوع ..

***

عدت إلى الجزائر ، وجدت والديّ غضبان كثيرا لأنني ذهبت دون إخبارهما وأخبرتني صوفيا أنني عندما أرسلت لها الرسالة وأنا على الطريق قد تفاجئت كثيرا ولكنها أعجبت بما فعلته، بعدما أخذت نصيبي من التوبيخ من والديّ ، أخبرتهم أننا أنا ويزن قد تصالحنا وأننا قررنا الزواج ، تفاجؤوا في البداية وتحدثنا في موضوع أين سنسكن وعن صعوبة وضع العيش في غزة لكنني أقنعتهم ، وبعد رؤيتهم لإصراري على الموضوع وتأكدهم أنهم مهما تحدثوا لن أقتنع فأنا قد قررت وانتهيت ولن أتراجع، تفهموا الموضوع ، قمنا بالتجهيزات بسرعة وأقمنا عرسا بسيطا في الجزائر بعد مجيء يزن..

كان كل شيء جميلا ، كنا سعيدين إلى أبعد حد أكثر من الخطبة الأولى، جهزنا كل شيء في العرس على الطريقة الجزائرية حلويات تقليدية جزائرية بقلاوة ومقروط وتشاراك وعشاء على الطريقة القبائلية " كسكسي ولحم و حميس " ..

سافرنا بعد فترة إلى غزة وأقمنا حفلا بسيطا مع عائلة يزن، كانت تلك أسعد الأيام في حياتنا، كنت دوما أتمنى أن تدوم تلك السعادة وأن لا تنتهي تلك اللحظات أبدا...

تعودت على الحياة في غزة و على الأسلوب البسيط و الجميل في الحياة ، حتى بعد كل ما عاناه الناس في الحرب و لكنهم استطاعوا أن يعودوا إلى حياتهم الطبيعية بعد فترة قصيرة، كل عائلة هنا قد فقدت فردا أو أكثر منها في الحرب ، قام الناس بإعادة بناء بيوتهم ، عاد التجار إلى محلاتهم والأطفال إلى مدارسهم، والعمال إلى مكاتبهم ... و أصبحت أعمل في المستشفى و يزن في محل أبيه، وواصل الكتابة وإرسال مقالاته إلى جريدة محلية..

لم أرى في حياتي أناسا متضامنين ويساعدون بعضهم كمثل الناس هنا ، كل شخص يساعد الاخر بكل ما يملكه ، رغم ما في الحرب من سوء إلا أنها تظهر بياض قلوب الناس وحبهم لغيرهم وتظهر الأخوة والتكافل بينهم ، أكثر شيء يزعج اليهود هو أن هؤلاء الناس لا يقهرون رغم كل شيء هم كالبنيان المرصوص في تكافلهم ، لا يهزهم ريح ولا تفرقهم فتنة ..

عائلة يزن بسيطة جدا، أناس طيبون إلى أبعد حد ، أمه امرأة قوية ولا يهزمها شيء، هي امرأة طيبة جدا ،والده رجل يبدو صارما في النظرة الاولى ولكن بعد الحديث إليه وجدته شخصا مرحا وبشوشا ، يحبون يزن كثيرا ، يعاملونني بطريقة جميلة جدا وبلطف دوما ، تعلمني أمه كل يوم أكلاتهم ، وتتحدث لي عن تقاليدهم ، أحببت هذا الشعب كثيرا ، وأحببتهم أكثر بعد التقرب إليهم ، تزورنا أخته هناء في بعض الأحيان، تكبره بسنتين، طيبة جدا وتحب والديها وأخاها كثيرا، أصبحت صديقتي هنا، تسألني دوما عن أحوالي مع أخيها ، "إن ازعجك في شيء أخبريني سأعاقبه إنه مشاكس "، لهناء ولد

عمره ست سنوات وفتاة بعمر الأربع سنوات وزوجها صديق مقرب من يزن وصديقه في الكفاح أيضا ، أخبرني يزن أن زواجهما كان عن حب، وأنهما يحبان بعضهما منذ الطفولة .. أحببت كل شيء هنا، أصبحت لي عائلتان، عائلتي في الجزائر وعائلتي هنا..

***

من أعظم الشعائر في الإسلام يوم عرفة ،يوم يجتمع فيه مليوني شخص في مكان واحد يلبون باسم الواحد الأحد "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك"

عندما يفكر أحد ما في الموضوع ،لن يصدق كيف لرجل أميّ و يتيم من الصحراء قد جاء قبل 14 قرنا استطاع أن يغير كل هذا التغيير في العالم ،رجل يتبعه مليارات بعد 1400سنة من وفاته ،هذا ما يؤكد أنه لم يكن شخصا عاديا ،كان أعظم خلق الله، رجل اختاره الله ليوصل رسالته .. رجل عظيم لدين أعظم ..

كان أول عرفة لي في غزة مع والدك يوم 14 اكتوبر 2013 ، كنا صائمين، وقد اشترى والدك كبشا لنذبحه يوم العيد ..

جاء العيد يحمل معه كل معاني الفرح، ضحكات الأطفال، سعادتهم بملابسهم الجديدة ، فرحهم بالأضحية، صوت تكبيرات العيد صباحا، رائحة القهوة في الصباح الباكر، سلام وسكون لا مثيل لهما عند الفجر، زيارات الاقارب، تسامح المتخاصمين، ضحكات الأمهات بفرح أولادهن ، وسعادة الآباء بسعادة أولادهم .

العيد في غزة مختلف قليلا، خلفت الحرب الكثير من الأرامل والأيتام .. الكثير من المعطوبين، من لم يكن معطوب الجسد ،كان معطوب القلب بفقد أحد احبائه ، فكل منزل قدم شهيدا وكل أم قد

فقدت جزءا من كبدها، و لكل ذلك لم يمنع أحدا من الفرح بالعيد، يحتفل الناس هنا بعيدهم على الارض، و يحتفل الشهداء بالعيد في الجنة هذا ما كنت أقوله دوما للأطفال اليتامى هنا

ذهبنا أنا و يزن في الصباح الباكر لمنزل جدتك ،كانت في انتظارنا .. كان العيد سعيدا رغم ما خلفته الحرب إلا أن الناس استطاعوا أن يبتسموا رغم ما فيهم من ألم " لا يستطيع أي عدو أن يمنعنا من الفرح لأننا نستحقه ونعلم جيدا كيف نعيشه ، نحن فوق ارضنا التي نموت في سبيلها و لا نندم أي لحظة على التضحية من أجلها ، موتنا في سبيل فلسطين فخر لنا، يفرح صاحب الارض عندما يستشهد في سبيل ما يمتلكه و يرتجف العدو لأنه يعلم أنه يموت في سبيل ما ليس له ، هم يخافون الموت و نحن نواجه ونذهب اليه بأقدامنا " هذا ما قاله يزن ، أراجيح الاطفال في الطريق ، وبالوناتهم الملونة ، العائلات المجتمعة على الشاطئ .. كان العيد مختلفا جدا هنا ... نتمنى دوما أن تدوم سعادتنا و لكن ذلك لا يحدث لأن السعادة لم تخلق لتدوم..

***

أحاديثنا دوما مطولة ، نتحدث في كل شيء .. أذكر ذلك الحديث بيننا...

قلت له :

-لم لا نبقى سعداء دوما هكذا؟ لم السعادة محدودة دوما ؟

-الحزن، الألم ،الفرح ،الحب ...تفاصيل الحياة التي يجربها أي شخص و يمر عليها كل أحد، لكل منا نصيبه من السعادة ، و في نفس الوقت لكل منا نصيبه من الحزن، لا فرح دائم ولا حزن أبدي، أمر أحد الملوك لوزيره أن يكتب له جملة ان قرأها وهو حزين يفرح وإن قرأها وهو سعيد يحزن فكتب الوزير "لا شيء يدوم" هذه حقيقة نعرفها كلنا ولا أحد ينكرها ومع ذلك فنحن نسرف في أحزاننا ونقيم الدنيا حزنا و دموعا إن حدث شيء سيء وعندما نفرح فإننا نفرح بلا حدود وكأننا امتلكنا الدنيا ولن نفقدها، أنا لا أقول أن لا نفرح ولكنني أقول أن لا نفرح بإسراف حتى لا نخذل عند نفاذ الفرح وأن لا نبالغ في أحزاننا حتى لا نغرق في الألم ...

-أنا لا أفهم عقلانيتك في الحزن والفرح، هذه أمور قلبية، أنا أجد أنه من غير الممكن أن نتحكم في شعورنا ، أنا مثلا لا يمكنني أن أتحكم في نفسي عندما أكون سعيدة، لا أخفي سعادتي، أنا أطير فرحا ، أحلق، أفرح بكل ما أوتيت من قوة وعندما أحزن أسقط على الأرض وأبكي كما لو أنني فقدت كل شيء، لا أجد في ذلك مبالغة ولكن علينا ان نعيش كل لحظة كما هي ... لا يمكنني أن أكون وسطية مع قلبي ...

-لا أدري.. هل يجب أن أقول أنك غلبتني هذه المرة؟ علي أن أعترف أن أكثر ما أحبه فيك هو هذا، أحب فيك حبك للحياة وعيشك لها بكل تفاصيلها ولكن عندما تحزنين كوني رفيقة مع قلبك ،هذا يخيفني، أخاف عندما أفكر في ماذا ستفعلين لو أنك تفقدينني يوما ..

-إن فقدتك ؟ لم تقول هذا ؟ عندما أفقدك فأنا افقد نفسي، أنت لست نصفي الآخر .. أنت كلي الآخر..

-عديني إن رحلت أن ترفقي بقلبك وأن تبقي متفائلة كما أنت الآن ..

- ما هذا الكلام ؟ هل تنوي الرحيل؟

-لا أقول هذا ولكن إن حدث ؟ لا يمكننا التنبؤ بالمستقبل..

-إذا جوابي هو أنني سأموت بعدك..

- بعيد الشر عنك، ما عاش الذي سيحزن قلبك..

-فلتعش أنت يا فرح قلبي.. و لا حزن لي معك...

***

هنا في غزة أكثر موضوع يتحدث فيه اثنان هو الموت ، الموت هنا موجود أكثر من أي شيء آخر، أصبح جزءا من الحياة ...

أتذكر انه في يوم بينما نحن نتحدث قال لي:

- هل تعلمين ما هي أمنيتي ؟

-ماهي ؟ أخبرني ؟ هههه

- أن أموت بين يديك، أريدك أن تحتضيني بقوة لأموت بسلام ...

-تعرف جيدا أنني لا أحب هذا الكلام، و توقف عن قول هذا و إلا فإنني سأغضب منك، أمامنا عمر طويل لنعيشه معا، ليس وقت التحدث عن الموت، الحياة أمامنا لنعيشها معا، و شيء آخر لن أسمح لك أبدا أن تموت قبلي.

-بعيد الشر عن قلبك ، كل ما أريده هو أن تبقي معي و أنا لا تفارقيني ابدا .. يقول علي بن ابي طالب رضي الله عنه " أحبب من شئت فأنت مفارقه" حتى لو فرقتنا المسافات ستبقين في قلبي ، و لو فرقنا الموت ، ستبقين في روحي ..

-أكره حديثك عن الموت و كأنك شيخ في عمر السبعين، أنت شاب و أمامك كل الحياة، لم تقول هذا ؟

-"وجاءت ساعة الموت غفلة فهم لا يشعرون " لا أحد يدري متى أجله..

-أطال الله في عمرك و حفظك لي من كل سوء...

نظرت إليه مطولا بعد هذا الحديث، لم أستطع لحظتها تخيل موته قبلي، لن أتحمل ذلك أبدا ..

***

في فترة ما ، في شهر ماي من عام 2014، تغيرت وأصبحت مزاجية، أحيانا أكون عصبية وفي أحيان أخرى هادئة جدا، أصبحت آكل كثيرا و أشتهي مأكولات معينة ، شككت أنني حامل ولكنني لم أخبر يزن بالموضوع قبل أن أتأكد، كنت أخاف أن أعطيه أملا زائفا خاصة في هذا الموضوع لأنه يرغب كثيرا في أن يكون أبا، كنت أشعر بالسعادة بمجرد التفكير في هذا الاحتمال، قمت بفحص الحمل فوجدته إيجابيا، شعرت بسعادة غير محدودة وقتها، كنت أنتظر فقط اللحظة التي أخبر يزن فيها بالخبر، جهزت عشاءا خاصا تحت ضوء الشموع و انتظرت مجيئه من عمله في محل أبيه الذي استلمه بعد تعب أبيه من العمل ..

عند قدومه استغرب وسألني:

- ما المناسبة؟

-لدي خبر لك .. سيكون أسعد خبر سمعته..

-ما هو ؟ أخبريني

ابتسمت وقلت له - يزن، ستكون أبا في وقت قريب، أنا حامل في الشهر الثاني

تغيرت ملامحه وضحك كما لم يضحك كمنذ وقت طويل وانفعل

- لا أصدق، سأكون أبا أخيرا، أنا أحبك كثيرا

احتضنني بقوة و نزلت دمعة من عيني من فرط السعادة في تلك اللحظة

-ومتى نعرف جنس المولد ؟

-بعد شهرين من الآن .. أي في شهر جويلية

***

كنا سعداء جدا في تلك الفترة ، نفكر في ابننا القادم
وفي تسميته، لم نكن نريد أن نحدد اسما قبل معرفة جنس المولود ، في الشهر الرابع من الحمل ، في يوم 11 جويلية قمنا بزيارة الطبيبة و كنا متحمسين جدا ، أخبرتني الطبيبة أن ابننا القادم فتاة، خرجت و وجدت يزن في انتظاري احتضنته بقوة و قلت "فتاة" رأيت سعادة غير محدودة في عيونه و نزلت دموع الفرح من أعيننا نحن الاثنين، لا أفهم أبدا لم يبكي الناس من السعادة ،نعتقد أن الدموع خلقت للحزن ولكنها ليست كذلك، الدموع موجودة للسعادة أيضا، في بعض اللحظات لا نجد كلمات تعبر عن سعادتنا ونجد أن الضحك لن يعبر عما بداخلنا حقا، الدموع وحدها تعبر عن عمق السعادة في قلوبنا ...

عند عودتنا الى البيت فكرنا كثيرا في الاسم و في
لحظة مباغتة قلت "حلم ، سنسميها حلم لأنها كانت حلما بالنسبة لنا ، حلمنا الذي تحقق ، ستكون ثمرة حبنا "

قام يزن بترديد الاسم اكثر من مرة " حلم ، حلم ، حلم
اووه ما أجمل هذا الاسم ، سنسميها حلما .. "

***

ستمرين بالكثير من اللحظات ستشعرين باليأس وفقدان الأمل، وقتها عليك أن لا تستسلمي وأن تحافظي على قوتك لتواجهي الحياة بكل ما فيها، لا تفقدي الأمل أبدا مهما حدث.

يزن كان متفائلا دوما وكان متمسكا بإيمانه وقوته رغم الحياة ومآسيها، أنا متمسكة بقوتي الآن فقط من أجلك ، أنا واثقة أنه لو كان هنا كان سيقول لا تيأسي و لا تفقدي الأمل كل شيء سيكون بخير .

***

"موت"

"أحبب من شئت فأنت مفارقه"

علي بن أبي طالب

"أكتب ..

عن الفرحة المسروقة

عن الضحكة المغتالة

عن الاحلام المحطمة

عن القلب المكسور

عن الفرحة الهشة

عني و عنك أكتب..

يزن يا وجع قلبي و يا جرحي الأبدي.."

بدأت الحرب في 14 من شهر جويلية 2014 ، بدأ القصف ليلا ، صوت الصواريخ في كل مكان، جهز يزن نفسه وذهب للجهاد مع رفقائه، كنت أبقى طوال النهار في البيت وحدي وأنتظر عودته ولكنه لا يعود، أبقى قلقة طوال الوقت وأدعوا له بالسلامة ، أذهب في الليل للمبيت عند والده ووالدته ، مضى أسبوع على نفس الروتين، يرسل أحيانا رسائل ليطمئننا أنّه بخير ... نسمع أخبار

استشهاد الناس كثيرا.. رغم عدم معرفتي بهم ولكنني أحزن وأبكي كثيرا على ما يحدث ، الكثير من البيوت دمرت وعائلات استشهدت، المدارس توقفت عن التدريس وأصبحت ملاجئ للناس، أصبحت الأقسام مأوى للناس الذين دمرت بيوتهم ..

***

حبيبتي الصغيرة حلم ..

كتبت هذه الرسالة والدمع في عيني.

أسوأ ما قد يحدث لأحد هو أن يفقد أعز الناس إلى قلبه، أن يفقده إلى الأبد...
أتذكر جيدا ذلك اليوم الأسود ، كنت في الشهر الرابع من حملك، يوم 17 من شهر جويلية الكثير من الغارات، الكثير من القصف فوق رؤوسنا لقد كنت وحيدة في البيت كنت خائفة جدا، خفت عليك وعلى والدك الذي كان في أحد الأنفاق ..

أن تعيش في غزة يعني أن روحك معلقة دوما.. يعني أن تنتظر الموت في كل وقت و في أي وقت، كانت دقات قلبي تتسارع.. أحسست بشعور شيء في ذلك اليوم، شعرت أن هناك شيئا ما سيحدث ذلك اليوم ، اتصلت عشرات المرات وهاتفه مغلق ..يزن .. رد أين أنت يا يزن .. عندما حلّ المساء كان الانقباض في صدري يزيد باستمرار، سمعت طرقا على الباب، يزن .. كان هو ..ركضت لأفتح الباب فوجدته.. كان متعبا جدا .. إنه مصاب ! لا أصدق ما تراه عيناي .. حبيبي مصاب! أدخلته الى البيت بصعوبة .. ووضعته على الأريكة .. كان يريد التحدث فلم أتركه.. توقف لا تقل شيئا.. سأتصل بالإسعاف وبوالدك ..

-حبيبتي، لا تقلقي، لقد جئت إلى هنا لأودعك..أصبت وأنا في الطريق الى البيت، لم أكن أريد أن أموت وحدي.. وصل أجلي وأتيت لأموت في حضنك.. و مع ابنتنا ..احتضنته

-يزن لا تقل هذا ستكون بخير.. لن تموت ..ستبقى هنا لنربي حلم معا ..ابنتك تريدك معها هنا ..

-حتى لو ذهبت إلى المستشفى فأنا لن أعيش ، نزفت كثيرا ، وصلت بصعوبة إلى هنا ، وأعلم أن أجلي قد وصل ، اعتني بنفسك و بحلم جيدا

-سيصل الإسعاف الآن و ستكون بخير

-أحبك جدا. .. وأخبري حلم أن أباها يحبها جدا..

- وأنا أيضا أحبك..

-لا إله إلّا الله

اغمض عينيه ببطء و رحل...
صرخت بأعلى صوت : "يززن "

لقد مات .. احتضنته بقوة و بكيت كما لم أبك من قبل.
غادرني حبيبي .. وهذه المرة غادر إلى الأبد ..رحل و تركني مع ثمرة حبنا.. حلم ..أنت أجمل ما حدث لنا ..

والدك لم يمت وحده.. أخذ روحي معه ..

لا نموت فقط عندما تقبض أرواحنا ،نحن نموت عنما نفقد من نحبهم ، لم يمت وحده ، أخذ روحي معه..

كان استشهاد والدك أسوء حدث لي في هذا العالم بالنسبة لي ...

***

لا أدري كيف بإمكان الموت أن يخطف الناس بهذه السهولة ، كيف يرحلون دون سابق إنذار، كيف لشاب بعمر الزهور أن يختطف بهذه الطريقة ؟ لا زلت تحت وقع الصدمة، نعتقد دوما أن الموت يأخذ كبار السن فقط ولكنه يسرق الجميع، الموت يختار الطيبين ويأخذهم مبكرا لأنه يدري أنهم لن يتحملوا سوء هذا العالم،لا يستطيعون تحمل كل هذا السواد في هذا العالم و يعمر السيئون كثيرا لأنهم يصنعون السوء ولا يعيشونه، يعمر القاتل لأنه هو من يصنع الموت، لأن قلبه قد مات و ليس بإمكانه أن يموت أكثر، قتلهم للأطفال، للأمهات، للآباء .. يقتلون الجميع دون استثناء وحشيتهم لا حدود لها، إن دلت على شيء فهي تدل على أنهم وحوش بأقنعة بشر، انتهت كل معاني الانسانية عند وحشيتهم ...

***

عندما نرى أطفال الحجارة كيف يضربون العدو بحجارتهم الصغيرة دون خوف و ترى الجنود الصهاينة يحملون أسلحة متطورة داخل دباباتهم يرتعدون خوفا نفهم جيدا من هو صاحب الحق في هذه القضية ، صاحب الأرض في دفاعه عن أرضه لا يخشى أحدا ولا يخاف من شيء والمحتل يخاف لأنه يعلم أنه سيغادر هذه الأرض عاجلا أم آجلا و يعلم جيدا أن الهزيمة ستكون من نصيبه في النهاية ، حطمت حجرة صغيرة في أيدي الصغار جبروت عدو جبان ..

***

الموت، الحياة، الحزن، الفرح، اللقاء، الفراق، الألم..

ألغاز الحياة التي عجزت دوما عن فهمها، لم مات ذلك الشخص و لم يمت غيره ؟ لم مات في ذلك الوقت بالذات و ليس في وقت آخر ؟ لم نلتقي بأشخاص في وقت محدد ؟ لم نحب ذلك الشخص دون غيره ؟ لم تخذلنا الحياة دون غيرنا ؟

الهشاشة التي قلوبنا لا نهائية ، أصبح الحزن أعمق من أن يوصف،غرق ،تخبط في الحياة، انكسارات ... ماذا بعد كل هذا ؟ أليس الموت راحة من كل الأحزان ؟

الموت راحة لكل أحزان الميت فقط و لكنه بداية الحزن لمن ترك بعده.. ماذا يترك لغيره غير الحزن والبكاء والدموع والألم ...

احتراق أكباد الأمهات، انكسار الحبيبات، دموع الآباء.... هذا ما يتركه الشباب عند موتهم...

لا ادري من أين أبدأ... انكسار جدك ذلك الرجل القوي الصبور، فقد نصف صحته بفقدانه ليزن، لم أرى ابتسامته منذ ذلك الوقت ، رأيته يرتجف ولم يستطع التكلم بعد سماعه للخبر أقل ما يقال أنه انكسر، تخدر، وقف مدهوشا .. دون حركة، لم يجد ما يفعله، كل أب أو أم هنا يحلمان أن يكون ابنهما شهيدا، ولكن ذلك لا يعني أنهم لا يحزنون ككل أباء العالم على فقدان فلذات أكبادهم..

***

فقداني ليزن أفقدني نصف عمري.. إذا لم أقل.. موت يزن قتلني ..

تمنيت لو أنني مت قبل رؤيته في ذلك الكفن الأبيض المخيف ،شعرت بالفزع بالخوف بالهيبة أمام ذلك اللون ، اللون الابيض هو لون الصفاء و لكن بعد ذلك أنا أراه لون الموت، لون الحزن، لون الفراق الأبدي .. كم كان ذلك اليوم أسودا، الكثير من الناس أتوا إلى البيت، لون السواد في كل مكان، إلا هو مغلف بالبياض، أبيض صفي كقلبه، كم كان طاهرا و طيبا في حياته، غادر دون سابق إنذار، ربما شبع من هذه الحياة ، أراد الذهاب إلى الآخرة لينتهي ألمه هنا، قبلت جبينه وهمست : إلى اللقاء يا حبيبي، هذا وداعنا الأخير، في الجنة سنلتقي، انتظرني..

***

" أصبح طعم الحياة مختلفا، لم يعد للحياة معنى، الشيء الوحيد الذي جعلني أتمسك بالحياة إلى الآن هو أنت يا حلم، أصبحت الأيام متشابهة، جافة و حزينة، أنت تكبرين في رحمي كل يوم، أشعر بك داخلي، جدتك و جدك حزينان جدا على فراق ابنهما، ه في غزة في كل منزل تجدين شهيدا، أما ثكلى وأرملة في سن الزهور، تعتني بي جدتك كثيرا رغم حزنها إلّا أنها استطآعت احتواءنا، هي المؤنسة لي ولجدك، تتصل بي أمي كثيرا وخالتك أيضا لتطمئنا على حالتي، جدتك قلقة جدا علي وعليك، تريد القدوم و لكن ليس بإمكانها المجيء لأن الأوضاع ه مشددة وغزة محاصرة والقصف مستمر ...

سمعنا الكثير من الغارات صباحا عند استيقاظي لصلاة الفجر سمعت انفجارا في مكان قريب، شعرت للحظات أن موعد رحيلي أيضا قد حان ، كنت خائفة عليك ، كانت غارة على بيت الجيران، تم فقدان العائلة بالكامل ، صديق جدك أبو حسان و زوجته وابنتيهما ، عند عودة حسان في المساء من الأنفاق للاطمئنان على عائلته لم يجد بيته كما تركه في الصباح، وجد حطاما و منزل مدمرا وعائلة رحلت، انهار كل شيء كان هو أقرب للموت منهم لأنه اختار سبيل الموت و انظم للمجاهدين في سبيل أرضه ووطنه وأهله فسبقه أهله إلى الجنة ، أخته مروى كانت ستزف عروسة لحبيبها كمال في الأيام القادمة فسبقته الموت وأخذت حبيبته لتزف عروسة نحو السماء ..

يختار الموت دوما الأفضل ليأخذهم إليه ، تختار الجنة شهدائها ،كان أبو حسان رجلا طيبا و الكل يشهد على ذلك لا تفوته صلاة الفجر في المسجد ، فكتبه الله شهيدا عند وقت الفجر قبل ذهابه إلى المسجد، زوجته أم حسان بشوشة دوما تساعد الجميع هنا، منذ مجيئي إلى هنا لم أرى يوما وجهها دون ابتسامة، تسألني دوما عن أحوالي ، تضحك مع الاطفال، تمنحهم الحلويات دوما، تبتسم وتحيي الجميع ، يحبها الكل ..

سمعنا بعد أيام خبر استشهاد هناء أخت يزن و زوجها و ابنيهما في انفجار استهدف بيتهما في منتصف الليل... بهذا الخبر أصبح كل العالم سوادا بالنسبة لنا و خاصة لأم يزن و أبيه ... بقيا وحيدان دون ابنيهما وأحفادهما..

***

انتهت الحرب بعد عدة أيام، وأصبح الناس ثلاثة أقسام : أحياء، أموات و أشخاص بين الحياة والموت غارقون في حزنهم وينتظرونه ، بعد يزن أصبحت من الفئة الثالثة..

***

الحياة قصيرة، قصيرة جدا على اليائسين، قصيرة على فاقدي الأمل، ولكنها طويلة للحالمين، علينا أن نستغل كل لحظة فيها لنعيشها كما هي لأننا لا ندري في أي لحظة سنغادر..

***

رغم أنني في فترة العدة ولكنني ذهبت إلى الطبيب، لأنني لم أكن في حالة جيدة، أردت أن أتفقد حالك، أخبرتني الطبيبة أن حالنا لا يطمئن وأنه بسبب الحزن الذي انتابني في الأيام الاخيرة، الجنين لم يعد بخير، الولادة ستكون صعبة ويجب الاختيار بين الأم أو الجنين وعلى الأطباء أن يسقطوا الجنين، خيرتني بين حياتي وحياة ابنتي، كان ذلك صدمة بالنسبة لي، أنت الشيء الوحيد الذي بقي لي من يزن، أنت ثمرة حبنا، لا يمكنني أن أتخيل رحيلك بعد أن أتيت وأصبحت جزءا مني، أنت في رحمي وداخل أحشائي، أنت قطعة من روحي ، لا يمكنني أن أضحي بكِ .

خرجت فورا من المستشفى وتمشيت في الشارع وحدي...

***

تأملت الطرقات، الشوارع، البيوت المدمرة، أوجه الناس، نظرت إلى كل شيء في هذا المكان..

لون الحزن في عيني ذلك الصغير الذي مررت بجانبه في الطريق .. كان يبيع الكنافة الفلسطينية و هي نوع من الحلويات المحلية، وتغطى بالجبنة المحلاة، تخبز وتقلب لتصبح الجبنة في الأسفل، والكنافة في الأعلى، وكغيرها من الحلويات الفلسطينية يرش الوجه بالفستق الحلبي وقطر السكر، نظرته الشاردة بقيت في بالي ..

أي حزن جعل طفلا في عمره يبدو بحزن رجل في الستين ، أي حدث قتل طفولتك يا صغيري، الفتية في عمر هذا الصبي في بقية العالم ما زالوا يلعبون بألعابهم الصغيرة و الطفل هنا صار رجلا قبل بلوغه ، كم فقد هذا الصبي ليتيه بهذه الطريقة، قال أحد الكتاب يوما عندما رأى طفلا صغيرا يبيع الحلوى على الطريق " يحلم الأطفال الصغار في عمر هذا بقطعة حلوى وها هو طفل يبيع حلمه "، كم من أحلام الأطفال بيعت هناوكم من حلم قتل، كم من طفولة اغتيلت، لون الحزن في عينيك يا صغيري أكبر منك ومني ومن العالم جميعا، حزنك جرد العالم من انسانيته، ماتت ضمائر الناس في الأرض عندما سقطت دمعتك، اشتريت منه قطعتين و ابتسمت له، رد علي بابتسامة بريئة ولكن ملامحه كانت منكسرة و حزينة، أتأمل الوجوه هنا عندما أسير في الطريق، وجوه شاردة، حزينة، مكسورة و رغم ذلك ما زال الناس يبتسمون، رغم الفقد واليتم والحصار والألم، أخذوا أرواح الكثير ولكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا منا الحياة، أخذوا كل شروطها ، ماء ،طعام ، أدوية و لكنهم لم يستطيعوا أن يسرقوا

أهم شرط لمواصلة الحياة وهو الأمل ، لم يستطع اليهود بكل ما فعلوه من جرائم القتل و التشريد والتجويع أن يقتلوا أمل هؤلاء،

لم يستطيعوا أن يسرقوا منهم حبهم للحياة وأكثر من ذلك لم يستطيعوا إخافتهم من الموت لن يغلبوا أناسا يؤمنون بالموت في سبيل الله و في سبيل الأرض والوطن ،هذه الارض لنا ولأنها لنا فليس للجبن طريق الى قلوبنا و لأننا أصحاب الارض فنحن لا نهرب كالفئران من أرض المعركة، استشهد يزن و استشهد قبله كثيرون، ما زالت هذه الارض قادرة على تقديم المزيد في سبيل الوطن، صاحب الارض لا يخشى الموت من أجل ما يملك ،" وَلاَتَحْسبَن الذينَ قُتلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أمواتا بَلْ احياء عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونْ "

أفكر بك و في يزن طوال الطريق ، كم كان يزن سعيدا عندما أخبرته بحملي بك ، سعادته لم تكن تضاهيها أي سعادة وقتها، لا يمكنني أن أضحي بك ، سأموت في سبيل أن تعيشي أنت ..

وصلت إلى البيت ، كان فارغا و حزينا و فوضويا عكس ما كان قبل الآن، البيت الذي كان مقر سعادتنا و عرش الفرح بالنسبة لنا، أصبح كئيبا هكذا، الكتب مبعثرة فوق الطاولة و الأريكة ، فناجين القهوة مازالت هناك ، لم أستطع ترتيب الفوضى منذ عدة أيام ...

طيف يزن لا يغادرني، أتخيله في كل لحظة هنا أمامي،هو ليس هنا ولكنني أعيش معه ذكرياته، عندما أكون في المطبخ أتخيل صوت الباب الخارجي لدخوله ، أتخيله أمام الباب يناديني كعادته حبيبتي أنا أتيت أين أنت، أشاهد صوره كل يوم قبل النوم، كم كان سعيدا في الصو، كان مبتسما دوما، هذا ما يزيدني ألما عندما أرى الصور،

ربما لو لم يكن يضحك لكان الحزن أخف وطأة على قلبي، أنت تكبرين كل يوم في أحشائي،أشعر بسعادة عندما أتذكر أنني أحمل شيئا منه في رحمي، يزن كان يقول لي دوما أنّه يريد فتاة تشبهني، ولكنني أريدها تشبهه، في رزانه، ابتسامته، عقلانيته،عينيه .. أتأمل مكانه كل صباح، كان هنا قبل مدة قصيرة وغادر دون سابق إنذار، لا أحد هنا ليقول لي صباح الخير، لا أحد هنا لأتأمل عينيه صباحا ، لم تعد تشرق شمس الصباح منذ مغادرته، أصبحت كل الأوقات متشابهة بالنسبة لي ،كل الأيام متشابهة ...

***

جهزت قهوة ثقيلة كما يحبها يزن، رغم أنني لا أحبها ولكنني أدمنتها هذه الأيام، سيطر عليّ الأرق، جلست على الأريكة و فكرت أن أكتب لكِ قصتنا، لأنني أعلم أنني لن أكون معك، أحضرت أوراقي من مكتب يزن الذي مازال في مكانه.. و بدأت في الكتابة :

" حلم ..

ابنتي ..

لأنه من عادة احلامي أن لا تتحقق ...

أسميتك حلم لتكوني حلمي و حقيقتي .... "

***

مر شهران على مغادرته ، تمر الأيام بطيئة وحزينة ، كل الأشياء أصبحت حزينة بعد غيابه، لم يعد هناك طعم للحياة ، يزن كان الحياة، موته هو انتهاء الحياة بالنسبة لي ..

حل الخريف ، كما تتساقط أوراق الأشجار تتساقط الأيام معها، تساقطت السعادات في حياتنا واحدة تلوى الأخرى، الحرب ، رحيل يزن، رحيل هناء .. بدأت أوراق عمري الأخيرة في التساقط أيضا، كل يوم يمر هو ورقة من شجرة الحياة التي ستصبح عارية بعد مدة وتنتهي، لتزهر أوراق جديدة في الربيع القادم، ستكون شجرة ياسمين مزهرة و جميلة جدا، ستنتهي أوراق شجرتي لتزهري أنت يا حلم ..

***

صوفيا 2032

حمل فنجان القهوة و رأيت يديه، بقيت يداه كما هي، كما رأيتها أول مرة وبقي هو كما أحببته، نفس الجلسة نفس طريقة الحديث ونفس العيون ، عيونه ... لطالما سحرتني نظراتهما .. أحس بنفس الشعور الذي شعرته قبل سنوات، كأن شيئا لم يتغير.. قلبي بقي على حاله.. ثابتا كما هو.. وضع فنجان قهوته و التفت نحوي، التقت عينانا.. وقال :

" وأنت يا صوفيا ؟ كيف حالك؟ مضت سنوات طويلة .."

بحة صوته ..مازالت كما هي...

كنت أريد أن أقول و تسألني كيف حالك ؟ أنا بعد ابتعادك لم أعد بخير أبدا.. تعذبت كثيرا بعد رحيلك ...

أجبته بعد أن سرحت :

-نعم مضت سنوات طويلة .. طويلة جدا .. أنا بخير و أنتَ؟ كيف حالك؟

-اشتقت اليكِ .

-إشتقت؟ أنا اعرف أنّ المشتاق يسأل ، المشتاق يعود ...

-لم أكن أعرف ماذا أفعل ، كانت فترة صعبة و كان من الصعب العودة إلى الوراء ، ولم استطع مواجهتك بعد ذلك ، ولكنني لم أنسك أبدا ، كنت في بالي في كل لحظة ، كنت أسأل عنك باستمرار .. ولكن من بعيد، كنت أخاف أن أقترب بعدما ما فعلته.. خفت كثيرا من مواجهتك وتصديك لي ..

- فهمت أنك مررت بفترة صعبة ولكن تخليك كان مؤلما، مؤلما جدا...

-عندما أخبرني أدم عن حبه لحلم، لم اصدق ما حدث، استطاعت الحياة أن تجمعنا مرة أخرى رغم كل شيء، حبه لها، و رغبته في الزواج منها، غريبة جدا هي صدف الحياة...

-ربما هذا هو قدرنا ، أن التقيك بعد كل هذه السنين ...

- وتكونين لي أخيرا...

-لا أدري.. انتظرتك ، انتظرتك كثيرا .. ألم يتأخر الوقت؟

-لم و لن يتأخر الوقت، أريدك لي حتى و لو كانت تلك آخر لحظة في حياتي، كل ما يهمني الآن هو أن تسامحيني ..

***

حلم2035

أمي .. كان اليوم هو يوم خطبتي ، ليتك كنت هنا أنت و أبي، تمنيت ذلك كثيرا، جاء والد أدم و هو لطلب يدي، استقبلتهما جدتي وخالتي ، كان كل شيء جميلا، كنت سعيدة جدا لأني سأتزوج حب حياتي، جهزت نفسي ولبست فستانا بنفسجيا مثلك لأنني أعلم أن اللون الذي لبستيه في خطبتك ، كان أدم سعيدا جدا، لم يبعد عيناه عني و لا للحظة ، اقترب مني وهمس في أذني " وأخيرا ستكونين لي يا حلمي

▪ " كنت سعيدة جدا ،ليت الزمن يتوقف عند هذه اللحظات الجميلة

وحدث اليوم ما هو غير متوقع أبدا شيء يشبه المعجزة..
عندما جاء آدم و والده إلى بيتنا لاحظت النظرات الغريبة بين والد آدم العم وسيم و خالتي صوفيا .كانت متلبكة جدا عندما رأته وهو كذلك ..رسالتك التي أخبرتِني فيها عن خالتي وحبها للعم وسيم وتركه له هي التي غيرت كل شيء و عرفتني بآدم وكتبت لقاءا جديدا لخالتي إلى العم وسيم بعد سنين الغياب الطويلة ... كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا، هذه الحياة عجيبة حقا.. أخبرني آدم أن والده ووالدته لم يكونا متفقين كثيرا وأن زواجهما كان كثير المشاكل..أخبرني آدم بكل قصة والده ، رحيله مع الحراقة في القارب من عنابة إلى مرسيليا في فرنسا، كيف انتابهم الخوف من الغرق وهم في عرض البحر كما حدث مع قوارب أخرى، كان من حسن حظهم أن حراس الشواطئ لم يمسكوا بهم في ذلك اليوم ولا

فإن مصيرهم كان بالتأكيد العودة إلى الجزائر ليضيع مالهم وحلمهم في البقاء في الضفة الاخرى كان ليتلاشى في لحظة ، وبعد وصولهم ذهب كل منهم في طريقه وذهب وسيم إلى شقة صديق له كان قد اتفق معه مسبقا أن يبقى معه إلى أن يجد عملا ليستأجر غرفة هو الآخر، و ليتدبر أمر الوثائق، عمل وسيم في غسل الصحون وفي حمل البضائع و عانى الويلات في الغربة ، إلى اليوم الذي التقى فيه ماريا أم آدم في بيت صديقه الذي يعرفها وعرفها عليه، أعجبت به منذ البداية، و كانت تحبه و وأخبرته أنها معجبة به وأنها تريد أن تتزوج به و تمنحه الوثائق لأنها فرنسية و تعيش في فرنسا، رفض وسيم الموضوع في البداية و لكن بعد المعاناة وخوفه من إعادته الى الجزائر وجد أنه الحل الوحيد ليبقى في أوروبا ، تزوجها وحصل على الوثائق، لكنه لم يحبها أبدا، عاش حياة جميلة وعادية في فرنسا، حصل على عمل في مجال دراسته و كان عاملا مجتهدا ومتفوقا في عمله، منحته الغربة ما لم تمنحه الجزائر، ولكن تلك السعادة لم تدم طويلا لأن ماريا لم تشعر بحب وسيم لها أبدا، هي الوحيدة التي كانت تحبه ، أنجبت آدم بعد مدة قصيرة لكي تجعل وسيم يحبها ولكنه لم يفعل و لكنه أحب ابنه كثيرا ، و كان يعامله معاملة جيدة ويعتني به كثيرا ، كانت أمه حزينة في هذا الزواج ووالده كذلك ، لكنه لم يسء معاملتها أبدا طوال حياتهما معا ،إلى أن جاء ذلك اليوم الذي تركت فيه البيت ورحلت لتتركه وحيدا مع ابنه وهو فتى صغير بعمر 10 سنوات ، ولم ينقصه شيء كان وسيم بمثابة الأم والأب له،طلبت الطلاق بعد رحيلها و تركت ابنه له وتزوجت بعد ذلك، و بقي أدم في تواصل معها وعاش مع والده ، أخبرني أن والده لم يفكر في الزواج أبدا رغم إصرار عائلته على ذلك إلّا أنّه رفض الفكرة ..

كانت خالتي صوفيا متوترة جدا اليوم بسببحديثها مع العم وسيم

-خالتي، هل يمكن أن نتحدث؟

- أكيد يا حبيبتي..

-ما بك؟

-لا شيء

-ليس علي، هيا أخبريني.. أعلم بقصتكما أنت وعمو وسيم

-ماذا ؟

-أمي اخبرتني بكل شيء لا داعي للإخفاء، وتعلمين أنني زرته قبل وتعرفت على آدم في بيته

-أووه ، هذا غير معقول، وأنا كنت أعتقد أنك لا تعرفينها كل شي، ماذا تعلمين ؟

-امم ، كل القصةّ ؟

-حسنا ، سأحاسبك على اخفائك بأنك تعرفين الموضوع لاحقا ولأنك تعلمين سأخبرك ، تحدثنا اليوم عن سبب ترك وسيم لي وقتها و قد أخبرني .. أنه كان يمر بفترة صعبة جدا، و لم يستطع البقاء في الجزائر و أن زواجه في فرنسا كان من أجل الجنسية فقط لأنه كان هناك بلا أوراق و كانوا سيعيدونه الى الجزائر إن عرفوا بأمره، لم يستطع مواجهتي طوال الوقت وكان يعتقد أنني تزوجت وأكملت حياتي بعد رحيله ولم يعلم أنني طوال الوقت كنت أحبه ولم أنسه أبدا و بعد معرفته أنني لم أتزوج لم يستطع مواجهتي والعودة إليّ

مرة أخرى لأنه يعلم أنه بعدما جرحني كنت سأرفضه والآن أجد أنّه تواصل معك رغم كل شيء ..

-حسنا ! بإمكانك أن تسامحيه ، هو يحبك كثيرا ، رأيت ذلك في نظرته إليك ،نظرته تقول الكثير ... هو يحبك ، أنا واثقة..

قالت " أنت مثل أمك، نسخة مصغرة عنها، مجنونة ! " و ابتسمت أفرح كثيرا عندما يقول لي أحدهم أنني اشبهك ، الكثير يقولون أن ابتسامتي كابتسامتك وأنني مجنونة و متهورة مثلك ... أحبك كثيرا يا أمي، حتى لو لم تكوني هنا ولكنني أشعر بك معي، طيفكما أنت وأبي لا يغادرني أبدا، سأواصل مشواري في الصحافة، سأحقق حلم أبي بأن أكون صحفية عظيمة أدافع و أتحدث دوما عن القضايا الإنسانية و الوطنية..

***

"نـهاية"

"ونموت حين يغيب من نحبهم.. "

قمت بزيارة قبر يزن ، لم أزره منذ مدة ، لم تمر أيام العدة و لكنني لم أستطع أن لا أزوره ...

" ها أنا الآن هنا، يزن، يا وجع قلبي، يا غصة عمري و جرحي الأبدي... أشعر بعدم رغبتي في مواصلة الحياة بعدك ،لم تعد للحياة قيمة في غيابك، اشتقت إليك ، اشتقت إليك كثيرا ، كما يشتاق المنفي إلى وطنه، كما يشتاق الطفل المفطوم إلى أمه، كما يشتاق العصفور المهاجر إلى عشه، أبحث عنك في كل الأوجه ، أتخيلك في كل مكان ولا أجدك، أنا ضائعة، حزينة، تائهة في غيابك.. ماتت كل رغبتي في العيش ، الشيء الوحيد الذي يجعلني أواصل الحياة هو "حلم" أملي الصغير الذي يكبر كل يوم في رحمي، ما تبقي لي منك هو قطعة صغيرة تحمل صفاتك في أحشائي، هي جزء مني الآن ، بقي أسبوع على مجيء حلم إلى العالم ومغادرتي إليك .. سألد ابنتنا قريبا، ثمرة حبنا ستأتي لهذا العالم لتنيره، زهرة حبنا ستزهر، حلمنا ستكون حقيقة .. أنت صنعت الحياة حتى بعد موتك.."

الرسالة الأخيرة 02 ديسمبر 2014

صوفيا

لم تصمد ديهيا لأسبوع كما قالت، بعد مغادرتها المقبرة جلست لتكتب رسالتها الاخيرة، شعرت بآلام المخاض ، أخذها جدك وجدتك إلى المستشفى، نقلت فورا إلى غرفة العمليات، اتصلوا بنا فور دخولها إلى المستشفى، سافرت فورا في الرحلة الاولى إلى مصر وبعدها إلى غزة عبر معبر رفح، وجدت بعض الصعوبة في المرور و لكنني دخلت إلى غزة ، عند وصولي وجدتها قد رحلت، أخبرتني أم يزن أنّ ولادتها كانت صعبة جدا وأنهم انقذوك يا حلم بصعوبة، أعطتني بعدها الرسائل التي تركتها وكانت قد وصت أم يزن بأن تعطيني إياها ووجدنا رسائلها إليك في البيت .. توفيت خلال الولادة وولدت أنت يا حلم ، تحقق حلمها وحلم يزن، استطاعت ثمرة حبهما أن تأتي إلى العالم ، رغم كل شيء ، استطعت يا حلم تتحدي كل الصعاب لتكوني هنا، تحدثت مع جديك في شأن أخذك معي إلى الجزائر وأن أربيك هناك، وافقا لأنهم كبيران ولا يستطيعان الاعتناء بك ولأنهما لا يريدان أن تعيشي في الحصار وهما يعلمان جيدا أنني سأعتني بك جيدا كما كانت ستفعل ديهيا، والدك كان شجاعا و رجلا قويا استشهد في سبيل الله و في سبيل أرضه ووطنه و ديهيا كانت قوية واستطاعت أن تصبر على كل ما حدث، أصبحت أرملة في سن صغيرة ، فقدانها لأعز شخص عندها، غربتها ، الظروف السيئة التي مرت بها في فترة الحمل وحزنها، ورغم كل شيء أنجبتك واختارت أن تعيشي أنت ، غادر والداك بسلام وأنت الآن هنا حلمهما الجميل المحقق ، لتواصلي ما بدأه وتكملي مسيرتهما وتحققي ما لم يستطيعا تحقيقه ...

النهاية

للتواصل مع الكاتبة

فيسبوك : Sabrina BENEBRI أو صفحة : رواية أسميتك حلم

انستغرام: SABRINA_BENHEBRI

البريد الالكتروني

sabrinabenhebri@yahoo.com